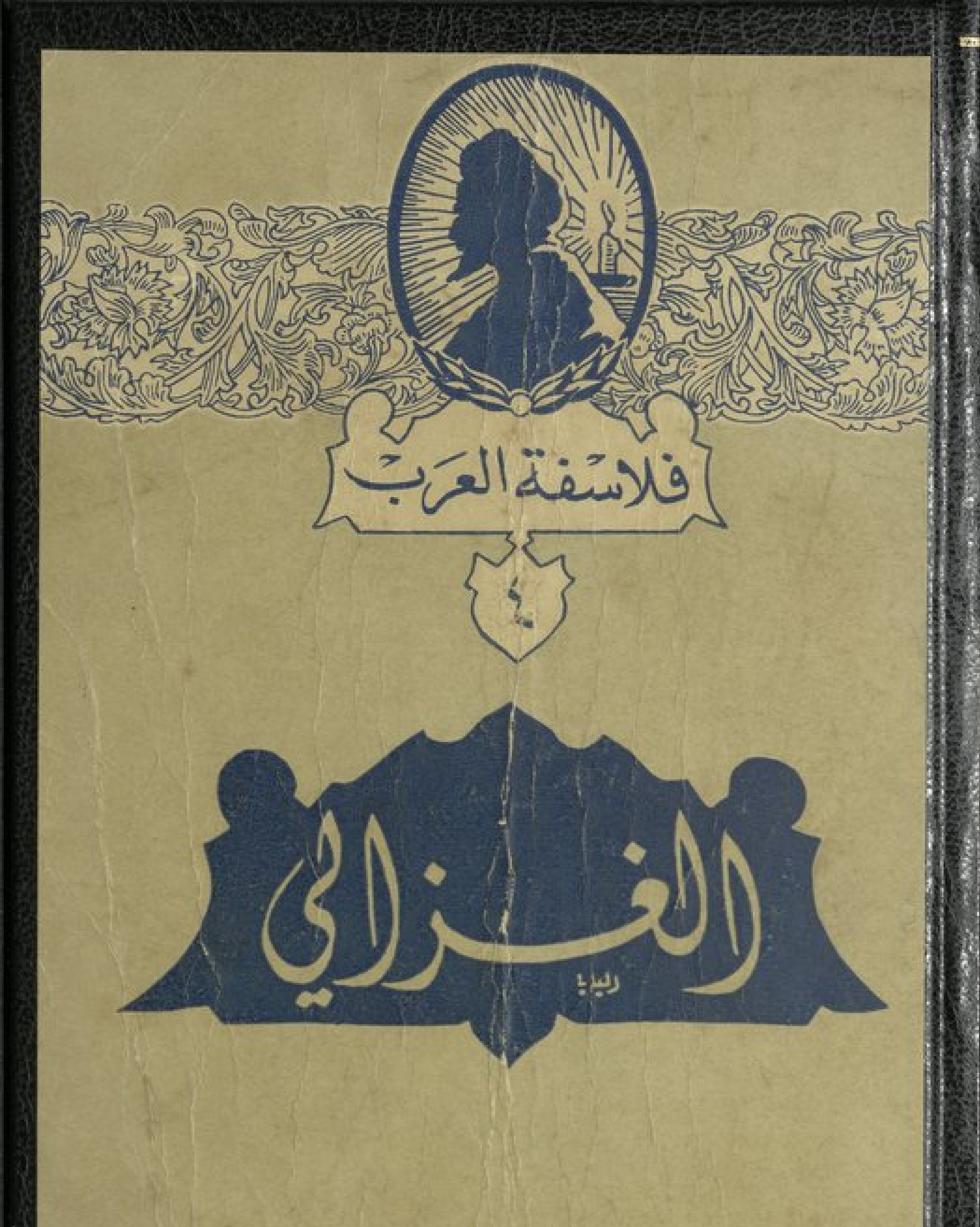


الجزء الثاني


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY

الغزالي المتكلم

كيف برهن وجود الله

اعتباره صفات الله بعضها غير زائد على ذاته وبعضها زائد على ذاته.

علم الله: مقارنة بين نظرية الغزالي ونظرية الفلاسفة

قدرة الله: نفي ناموس السببية، معنى التكليف

إرادة الله: علاقة إرادة الله بقدم العالم وحدوثه.

افعال الله: حق الله التصرف بمخلوقاته ونتائج هذا الحق.

النبوة: تحديدها - الرؤيا - الإلهام - الطرق المختلفة في المعرفة عند الانسان

الحشر.

الغزالي: إن الامكان كالامتناع مسألة فكرية لا يحتاج "ما نحن" فإذا احتاج الامكان الى مادة فالامتناع كذلك إننا لا نجد للامتناع مادة. وأما البياض والسواد فليسا اللذين يوجدا ولكن يوجد الشيء الأبيض والأسود معرفة الله بالجزئيات (المسألة الثالثة).

الله لا يعرف إلا الكليات، دون الجزئيات لأنها متغيرة والعلم تابع للمعلوم فإذا تغير العلم تغير المعلوم وحينئذ تكون الذات الالهية محلاً للتغير وهو محال.

الغزالي: انتم تقولون إن الله يعرف الكليات وهي مختلفة بل إن الاختلاف بينها أبعد من الاختلاف بين

الكلية وجزئياتها، فلماذا إذن نجهل الجزئيات وهي أدنى من الكليات في الاختلاف.

٣) حشر الأجساد (المسألة الثالثة)

الفلاسفة: إن الأجساد فانية لأنها تنحل في التراب ولا يمكن أن تعود إلا مثلما كانت عليه.

الغزالي: إننا لا نقول أن هذه الأجساد تعود هي بنفسها والله تعالى الذي علمها بهذا الجسد قادر على خلق جسد آخر يعلقها به.

الأب يوحنا قمير

أستاذ الفلسفة العربية في جامعة القديس يوسف

الغزالي

دراسة - مختارات

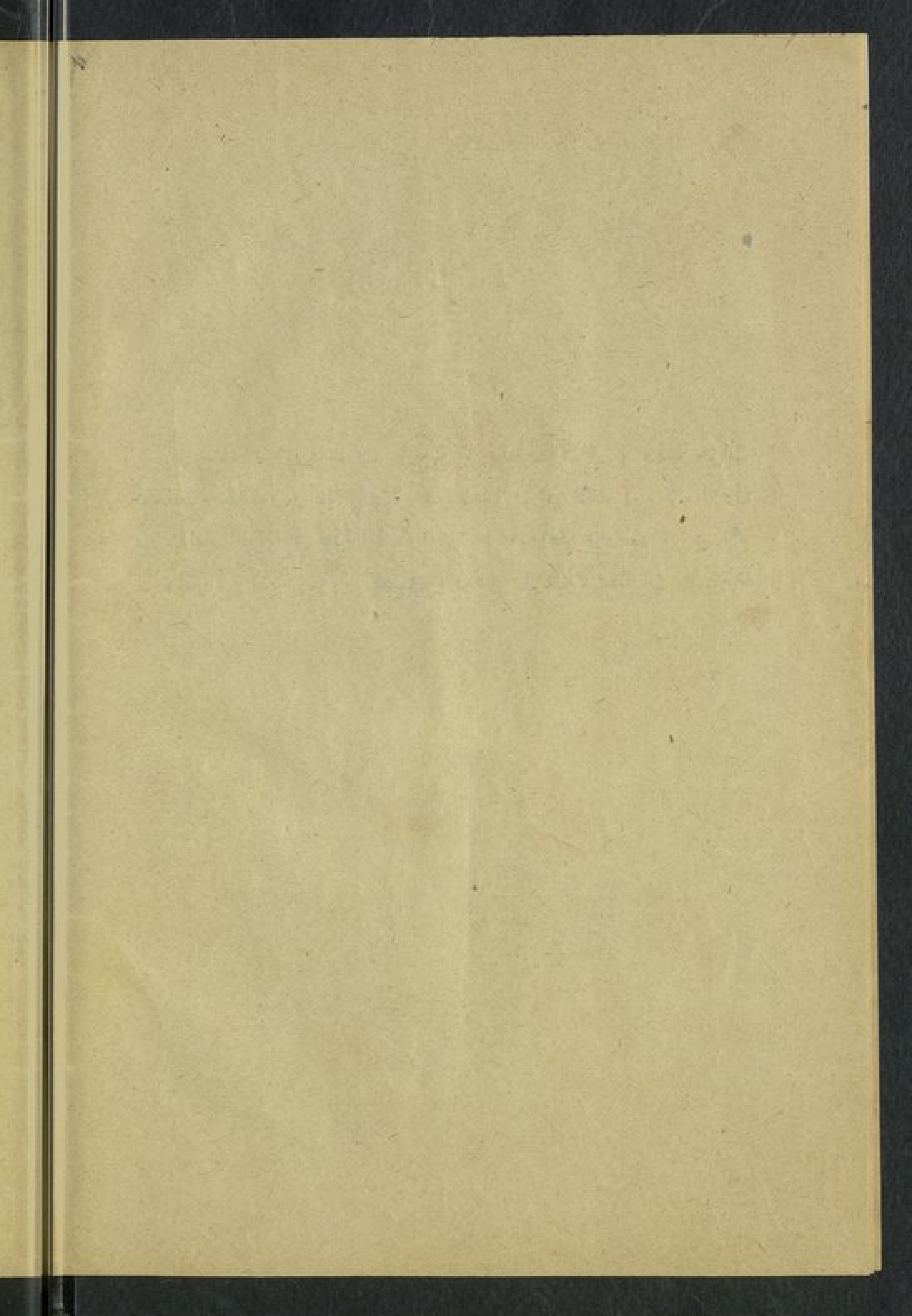
طبعة ثانية منقحة

الجزء الثاني

المطبعة الكاثوليكية

بيروت

في حياة الغزالي احداث خارجية ، وتبدل آفـاق ، وفيها هزات داخلية ، عقلية وروحية . وانا قد عرضنا لكل ذلك في الجزء الاول من دراستنا . اما في هذا الجزء فنرى ما هو اهدأ واوضح ، نرى اهم اراء الغزالي كمتكلم ، ثم كصوفي ، ونتبع كل ذلك بمختارات مناسبة .



٥

المتكلم

كان الغزالي متكلماً حين دافع عن عقائد السنة ، عن عقائد مذهبه الرسمي ، فهاجم الباطنية ، وهاجم الفلاسفة .

وكان متكلماً ايضاً حين عرض عقائد السنة في اهم مسائل الكلام : في ذات الله وصفاته وافعاله ، وفي الامامة والنبوة والحشر .

واننا لن نعود على جداله للباطنية ، ونرجئ الى دراسة مستقلة جداله للفلاسفة في «تهافته» ، مكتفين ببسط ارائه الكلامية «الرسمية» في المسائل التالية :

١ ـ وجود الله

ان الانسان مجبول في فطرة عقله على معرفة الله . وانه اذا رأى ما في خلق الله من ترتيب محكم ، وامر عجيب ، اقرّ بضرورة صانع يدبر ، وفاعل يدبر ويقدّر .

وللغزالي ، غير ذاك ، برهان طويل نوجزه لك في ما يلي :

ان لكل حادث سبباً .

وان العالم الجسماني حادث . فله اذاً سبب .

اما برهان حدوث الاجسام فحاصل من انها لا تخلو من الحوادث ، من الحركة والسكون . فلو لم تكن الاجسام حادثة ، لما كان للحركة والسكون اول ، وكان عدد من الحركات لا نهاية له ، وهو محال .

اذاً الاجسام حادثة ، ولها سبب هو الله .

واذاً قد ضلّ الفلاسفة ، اذ قالوا بقدم العـالم ، لا بل كفروا اذ خالفوا تعليم الشرع في ذلك .

فالغزالي ، كما رأيت ، يستند في اثبات وجود الله الى ما في العالم من نظام عجيب ، والى استحالة عدد من الحركات لا نهاية له ، فينتهي الى محدث اوّل ، هو سبب العالم ومنظمه .

ب ــ صفات الله

في الله ذات وصفات .

وبعض الصفات غير زائد على الذات ، وبعضها زائد .

ان ما ليس زائداً على الذات ، فاليك بعضه :

ان الله ازلي ، ليس لوجوده اوّل ، ابدي ليس لبقائه اخر .

وان الله واحد ، لا شريك له . ذاك انه لو قـدّر لله شريك ، لكان مثله في كل الوجوه ، وذاك محال ، لأن كل اثنين ضرورة متغايران . ولو جاز وجود اثنين دون مغايرة ، « لجاز ان يشار الى انسان واحد ، ويقال انه انسانان ، بل عشرة ، وكلها متساوية ، متماثلة . »[1]

وان الله مرئي في الآخرة بالابصار ، خلافاً لما زعم المعتزلة ، وان يكن لا جسم له ولا جهة . ذاك انّا لن نرى الله ، كما نرى الاجسام والالوان ، وانما الرؤية نوع من الادراك ، اتم من ادراك العقل واوضح ، لا يحيلها العقل ، ويقرها الشرع .

•

اما الصفات الزائدة على الذات فسبع : القدرة ، والعلم ، والحياة ، والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

ان هذه الصفات ليست هي الذات — كما ادعى المعتزلة والفلاسفة —

---

١) الاقتصاد في الاعتقاد . ص ٣٦

بل هي زائدة عليها ، قائمة بها . ان الله قادر بقدرة ، عالم بعلم ، حيّ بحياة ... لا قادر بذاته ، عالم بذاته ، حي بذاته ...

ذاك ان المفهوم من قولنا عالم ، مثلاً ، غير المفهوم من قولنا موجود ، فعلم الله اذاً غير وجوده ، وانما هو صفة زائدة على الوجود . وكذاك مفهوم قولنا قادر غير مفهوم قولنا عالم ، واذاً العلم غير القدرة . فالصفات متميزة بعضها عن بعض ، متميزة عن الذات[1] .

٥

ولنتوقف الان قليلاً على بعض هذه الصفات على القدرة ، والعلم ، والارادة .

علم الله :

اما علم الله فيتسع في رأي الغزالي الى كل معلوم ، موجود او ممكن الوجود ، الى معرفة ذاته ، ومعرفة كل مخلوقاته .

ويتفق الغزالي في هذا والفلاسفة ، على انه يخالفهم في شرح كيفية العلم الالهي .

لقد قال الفلاسفة ان علم الله بالاشياء واحد ، لا متغير . واذاً الله يعلم الاشياء ، لا عند حدوثها ، وفي ذاتها ، بل في الازل ، وفي ذاته ،

---

١) ونحن نرى ان الصفات غير متميزة في الحقيقة عن ذات الله ، او بعضها عن بعض ، لانّ كل صفة الهية لا متناهية ، حاوية في الحقيقة لكل ما يحويه الله ، فالقدرة مثلاً ، هي ايضاً علم وارادة وحياة ... انما اذا نظر اليها العقل من ناحية خاصة ، فيميزها عن الذات ، ويميزها بعضها عن بعض . فهكذا اذا نظر الى القدرة ، من حيث هي قدرة فقط ، ميزها عن الذات ، من حيث هي ذات ، وعن العلم من حيث هو علم ... فالتمييز اذاً غير حاصل في الله قبل توسط العقل ، حاصل في العقل المحدود اذ ينظر الى اللامتناهي ، ناتج عن هذه الوهدة السحيقة بين ادراكنا الضعيف واللانهاية الالهية .

علة كل شيء . ان الفلكي ، وقد عرف نظام الافلاك ، يعرف كل كسوف مستقبل ، وزمان حدوثه . وان الله ، علة العالم ، وعلة ما فيه من نظام ضروري ، يعلم في ذاته ، وفي الازل ، كل سلسلة الاسباب والمسببات التي ستصدر عنه .

ورأى الغزالي ان هذا النوع من العلم يقتصر حتماً على معرفة الكليات ، على معرفة ما هو الانسان المطلق ، وما هي عوارضه وخواصه ، ولا يتسع الى معرفة الاشخاص باعيانها ، الى معرفة زيد بعينه ، مثلاً ، وما يصدر عنه من خير ومن شر . وان هذا استئصال للشرائع الالهية ، وانه كفر ذميم .

•

ونحن نرى ان الفلاسفة قد جعلوا علم الله بالاشياء نوعاً من الاستنتاج ، سيما حين قارنوه بعلم الفلكي ، فبدا ان الله يستنتج وجود الاشياء من معرفته اسبابها ، وهو علم لا يجوز في حقه[1] .

على ان الغزالي قد تجاوز فكرة الفلاسفة ، وافسد رأيهم ، اذ جعل الله ، في نظرهم ، يجهل الاشياء باعيانها ، لانهم قالوا انه لا يعزب عنه مثقال ذرة مما في السماوات او في الارض .

---

١) ان الله يعلم كل شيء ، ويعلمه كما هو . انما علمه غير معلول للاشياء كعلمنا ، وغير استنتاجي . انه علم ازلي ، واحد ، لا يتغير مع الاشياء والازمنة ، لان كل شيء ماثل لديه في نظرة واحدة الحية ، تصل الازل بالابد ، وترى كل ما يجري بينهما . واذاً لا يعلم الله الاشياء في ذاتها ، عند حدوثها ، بل في ذاته ، وفي الازل .

وان كيفية علم الله ، اذا تطرقنا الى كل ما تفترضه من مشاكل ، لسر مجهول ، يتلعثم في شرحه اللسان ، ويكلّ العقل . وهل عرفنا بعد كيف نعلم نحن ، فنجاري غرورنا ونشرح كيف يعلم الله ؟ الا اسمعوا ما يقوله القديس اغسطينوس : « لا تنتظروا ، اخوتي ، ان اشرح لكم كيف يعلم الله . شيئاً واحداً اعرف ، وهو انه لا يعلم كالانسان ، ولا يعلم كالملاك . اما كيف يعلم ، فاني اشفق من شرحه ، لاني اعجز من ان اعرفه . »

قدرة الله :

واما قدرة الله ، فاليك بعض اراء الغزالي فيها .

ان الله قادر على كل شيء ، خالق لكل شيء ، للجواهر والاعراض ، للكائنات واعمالها . ويذهب الغزالي الى ابعد استنتاج فيقول بان الله هو السبب الوحيد لكل عمل في الجماد ، ولكل قدرة وفعل في الحيوان والانسان .

ليست النار ، مثلاً ، سبباً لاحتراق القطن ، بل الله هو السبب . ان ملاقاة القطن للنار شرط في الاحتراق ، وقد اتخذها الله سنة الا يحرق القطن الا عند ملاقاة النار ، ولكنه يستطيع خرق هذه السنة فتكون المعجزات . وان الفلاسفة قد ضلوا ، اذ نسبوا السببية للمحسوسات ، وقالوا بضرورة اقتران السبب بالمسبب ، فنفوا المعجزات ، او جعلوها قدرة طبيعية في بعض النفوس . ان المعجزة فعل الله .

وان الله سبب الاعمال في الحيوان ، والا من اين كان للعنكبوت ، مثلاً ، ان تنسج من البيوت غرائب الاشكال ، وللنحل ان « تشكل بيوتها على شكل التسديس ، فلا يكون فيها مربع ولا مدور »[1] ، ولولد الهرة ان يدب الى ثدي امه وهو مغمض العينين ؟

وافعال الانسان ما شأنها ؟

ان افعال الرعدة مقدورة لله ، لانها تصدر عن الانسان دون سابق ارادة او علم ، ولانه عن دفعها عاجز .

وان الافعال الاختيارية مقدورة ايضاً لله ، لانها حادثة ، وكل حادث خلق له[2] .

---

١) الاقتصاد في الاعتقاد ص ٤٣

٢) بين افعال الرعدة والافعال الاختيارية فرقان : الفرق الاول هو ان الله يخلق افعال الرعدة دون ان يخلق القدرة عليها ، بينا يخلق القدرة على الافعال الاختيارية قبل ان يخلقها . والثاني هو ان افعال الرعدة لا يسبقها معرفة او تردد ، ويسبق الافعال الاختيارية تردد عقلي في افضل المتقابلين .

ويحلل الغزالي الفعل الاختياري على الوجه التالي : ان العقل يتردد احياناً في خيرية الفعل ويختـار ، ويظل متردداً حتى يتميز ان الخير في الفعل او الترك ، وحينئذ تنبعث الارادة ضرورة ، ويكون الفعل . واعلم ان حكم العقل نفسه يحدث جبراً . فالانسان مجبور على الاختيار .

والفعل بعد ليس خلقـاً للانسان ، بل لله ، الذي يخلق الفعل بعد القدرة ، والقدرة بعد الارادة ، والارادة بعد العلم .

وما علاقة قدرة الانسان اذاً بالفعل ، وما معنى التكليف ؟

ان الفعل ، في نظر الغزالي ، متعلق بقدرتين ، قدرة الله وقدرة العبد ، على انه متعلق بقدرة الله تعلق المسبَّب بالسبب ، متعلق بقدرة العبد تعلق المشروط بالشرط . ويجادل الغزالي طويلاً في امكان افتراض قدرة للعبد ، لا تتعلق بالمقدور تعلق التأثير والايجاد ، ويقر بانها قدرة بالعجز اشبه ، مهما اضيفت الى قدرة الله .

اما التكليف فغايته التخويف . والخوف سبب لترك الشهوات ، سبب للنجاة ، والله مسبب الاسباب ومرتبها . فاهل الجنة مقودون الى الجنة بسلاسل الاسباب ، وهي تسليط العلم والخوف عليهم ، واهل النار مقودون الى النار بالسلاسل ، وهو تسليط الغفلة والامن عليهم ، وكلهم الى ما يساق مقهور .

وكل ذلك بعدُ عدل من الله ، وليس في الامكان احسن منه او اتم . لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما عرف قدر الصحة ، وكذلك لولا النار لما عرف اهل الجنة قدر الجنة . ما لم يخلق الناقص ، لم يعرف الكامل ، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعاً .

فالغزالي ، كما رأيت ، يتفق والفلاسفة على القول بالجبر ، وان اختلفوا في التعليل .

وانه يخالف المعتزلة ، الذين قالوا بحرية الانسان ، وبان فعله خلق له وحده ، لا علاقة به لله[1] .

ارادة الله :

واما ارادة الله فقد اختلف الغزالي والفلاسفة في شرح تعلقها بالمراد ، او ايجاد العالم بنوع عام . قال الفلاسفة ان الله بارادة قديمة اوجد العالم ، وان العالم معلول قديم . وقال الغزالي ان الله بارادة قديمة اوجد العالم في الوقت الذي وجد فيه ، وان الارادة قد ميزت وقتاً ما عن غيره من الاوقات المتماثلة ، لان الارادة صفة من شأنها تمييز الشيء عن مثله خلافاً لما زعم الفلاسفة .

وجدال الغزالي للفلاسفة يطول ، فانه يستغرق فصولًا من كتاب « تهافت الفلاسفة » .

وان مسألة الارادة هذه هي مسألة قدم العالم وحدوثه ، وكل ما دار حول هذه المشكلة من جدل . ولب الجدال يعود الى هذا : الفلاسفة يقولون بارادة قديمة ، وبالتالي بفعل قديم ، يستحيل تراخي المفعول عنه ، والغزالي لا يحيل تراخي المفعول عن الفعل ، انما يحيل وجود عالم قديم ،

---

١) اما نحن فنرى ان المخلوقات اسباب حقيقية لافعالها ، وان الله سبب حقيقي لهذه الافعال . لا معنى لموجود لا فعل له ، ولا وجود الا بايجاد الله . ان فعل الانسان معلول له ، ومعلول لله ايضاً ، انما على تفاوت في السببية ، فالله يعمل كعلة اولى ، والانسان كعلة معلولة . ان فعل المخلوق تابع لوجوده : ان وجودنا من الله ، به حدث ، وبه يدوم ، وان وجودنا ليس وجود الله . كذلك فعلنا ، فانه فعل الله ، وفعلنا ايضاً . اما اذا شئت ان تعرف كيف يتوارد سببان على فعل واحد ، وكيف يظل الفعل الانساني حرًّا على الرغم من ايجاد الله له ، فنظنك تجاوز حدك . ذاك ان الايجاد الالهي خارج عن نطاق مداركنا ، لا جارحة تحسه ، او وجدان يخبره ، وان الكيفيات الالهية اجمالًا تفوق ادراكنا المحدود ، فاكتفِ بطرفي السلسلة بان تعرف ان الله خالق كل شيء ، وبان الانسان حرّ ، خالق لاعماله .

لانه يحيل وجود حوادث لا اول لها ، ولا نهاية لعددها . وما ننوي الان ان نتوقف على هذه المسألة .

ج – افعال الله

يتوقف الغزالي ، في الكلام عن افعال الله ، على صفة اساسية ، هي حق التصرف المطلق في عباده ، او ما يمكن تسميته التجويز . فهكذا يجوز لله :

١ – الّا يخلق الخلق ، واذا خلقهم الّا يكلفهم . وقالت طائفة من المعتزلة بوجوب الخلق ، والتكليف بعد الخلق .

٢ – ان يكلف العباد ما يطيقون وما لا يطيقون . وذهبت المعتزلة الى انكار ذلك .

٣ – الّا يراعي الاصلح لعباده ، بل له ان يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد . وقالت المعتزلة برعاية الاصلح .

٤ – الّا يثيب على طاعة ، والّا يعاقب على معصية ، بل ان شاء اثاب ، وان شاء عاقب ، ولا يبالي لو غفر لجميع الكافرين ، وعاقب جميع المؤمنين ، وان الصفح بالله اولى . وقالت المعتزلة بوجوب ثواب الطاعة وعقاب المعصية .

وحجة الغزالي في كل ذلك ان الواجب والحسن والقبيح الفاظ اخطأ الناس معناها .

ان الواجب ما في تركه ضرر ، والحسن ما وافق غرض الفاعل ، والقبيح ما نافى ذاك الغرض . وان الله يأمن من الضرر ، منزه عن الاغراض ، واذا لا واجب عليه ، ولا حسن في حقه او قبيح[1] .

[1] ونحن نرى ان هذه التحاديد ناقصة ، فاسدة .
اجل ان الله خلق العالم مختاراً ، وانه راعى الصالح ، لا الاصلح ، وانما هناك

د ـ النبوة

النبوّة طور وراء العقل ، نبصر فيه غيباً ، ونرى آتياً ، ونطّلع على مجهول . وان تشك في النبوة ، فلك عليها قرائن وادلة . ان النائم يدرك الغيب ، والنوم انموذج من خاصية النبوة . وان علم الطب والنجوم لأبعد من ان ينالهما عقل ، وانما نيلا بالهام ، وعلمهما انبياء ! وان ادوية القلوب المرضى — كادوية الاجسام — لا تدرك ببضاعة العقل ، بلْ بنور النبوة ، بما سنه الانبياء من عبادات ، ويرشدون اليه من تقى . وان معجزات الانبياء ، اذا قارنها في النبي خلق سليم ، وهدي مصيب ، واذا رافقتها القرائن ، وسندتها الدلائل تورث في النفس يقيناً ، وتقوى على ما يوردون ضد المعجزات من اشكال الكلام ، ومن شبهات السحر والاضلال .

والك الى اثبات النبوة سبيل آمن من كل ذاك ، من كل معجزة وقرينة ، وكأنك تشاهد بالعين ، وتأخذ باليد ، هي سبيل الذوق عن طريق سلوك الصوفية .

ان الالهام الصوفي نوع من الوحي ، اذا بلغته ، ادركت جوهر النبوة . وان الفرق بين النبي والصوفي هو ان النبي يرى بوضوح ما يلمحه الصوفي لمحاً . ان الالهام اضعف من الوحي ، كما ان الرؤيا اضعف من الالهام . الوحي حلية الانبياء ، والالهام حلية الاولياء . على ان الوحي

اشياء نقضي بها طبيعة الله ، وطبيعة الانسان . يأبى العقل ان يكون هذا الانسان الحر العاقل ، والّا يكون مقيداً بطبيعته العاقلة ، بخير يعمله ، وشر يتقيه ، نزل وحي بذلك ام لا . ان الله ، حين يخلق الانسان ، يريده انساناً يعمل ما يقتضيه الكمال الانساني نفسه ، ولا بد اذاً من ثواب وعقاب . وان ارادة الله هذه لارادة ضرورية ، ناتجة عن حكمة الله في خلقه . واذاً التكليف واجب ، والثواب والعقاب واجبان . اما تكليف الخلق ما لا يطيقون فناف لكمال الله ، مناف للعقل ، واضا حماقة لا يقدم عليها بشر ، فكيف بالله العادل الحكيم ؟

قد انقطع ، وباب الرسالة انسد ، اما باب الالهـام فلا ينسد ، ومدد نوره فلا ينقطع .

واذاً للانسان الى المعرفة طريقان : بشري ورباني . اما الطريق البشري فهو طريق العقل ، يسير على نوره ، وينمو بالتعلم والتفكر . ولكن العقل عاجز في ادراكه الحق ، عرضة للضلال ، هدف للشبهات ، غير واثق من ذاته . وهو ، فوق ذاك ، لا يقوى على هداية ، او يستطيع للقلوب شفاء ، وعن المعاصي زجراً ، وللاهواء ردعاً . وبالتالي لا يستطيع العقل بذاته ثقة ، وللحق ادراكاً ، والى الخير سبيـلاً ، واذاً هو بحاجة الى نور الهي ، يعيد اليه الطمأنينة ، ويهديه الصواب ، ويرشده التقى .

هـ ـ الحشر

قبل البحث في حشر الاجساد ، يثبت الغزالي هذا المبدأ : اذا اثبت الشرع امراً ، ورآه العقل جائزاً ، او لم يقض باستحالته ، وجب التصديق به . اما ما اثبته الشرع ، واحاله العقل ، فيجب تأويله ، لان الشرع لا يعلم محالاً .

اما الحشر فقد اثبته الشرع ، ولا يقضي العقل باستحالته ، لان ما امكن خلقه ، يمكن اعادته . وعليه يجب التصديق بحشر الاجساد ، ويجب تكفير الفلاسفة الذين انكروه .

الصوفي

التصوف هو السيرة العملية التي انتهى اليهـا الغزالي ، ورأى ان يسلكها ويدعو اليها .

وقد وصف هذه السيرة في كتب عديدة ، اهمها كتاب احياء علوم الدين ، ولهذا نرى ان نعتمد هذا الكتاب في عرض تصوف الغزالي ، دون ان نهمل باقي كتبه ، فندرس تباعاً :

١ ـــ العبادات

العبادات هي الفروض الاسلامية : الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصيام .

وكان الفقه يبحث هذه الفروض ، ويستقصي شروطها .

على ان الغزالي يرى ان الفقه اقتصر على وصف الاعمال الظاهرة ، وفاتته الروح . قال في حديثه عن الصلاة : « وقد استقصينا ، في فن الفقه ،... اصولها وفروعها ... ونحن الآن ... كاشفون عن دقائق معانيها الخفيّة ، في معاني الخشوع والاخلاص والنيّة ، ما لم تجرِ العـادة بذكره في فن الفقه[1] » .

لهذا يعود الغزالي الى هذه الفروض ليبعث فيها الحياة ، ويبث فيها الروح ، فلا تبقى مجرد اعمال ظاهرة ، اقحلتها العادة ، واقتصر عليها المؤمنون .

---

١) الاحياء : ١ : ص ١٠٨

واذاً ليست الطهارة نظافة خارجية ، ونوعاً من الزينة ، بل هي ، في مفهومها الديني، تطهير الجوارح عن الاثم ، وتطهير القلب عن الرذائل، وتطهير السرّ عما سوى الله .

واذاً ليست الصلاة تحريك لسان بكلام ، وحركة جسم بركوع ، بل هي حضور قلب ، وفهم الفاظ ، وهي تعظيم لله ، وهيبة منه ، ورجاء لثوابه .

وقل مثل ذلك في باقي الفروض ، في الزكاة ، والحج ، والصيام .

٢ ــ العادات

عدا الفروض الشرعية الخمسة ، يأتي المؤمن اعمالاً بشرية لا تحصى ، عليه ان يستوحي في القيام بها ايمانه ، ويهدف الى اخرته .

فالاكل ، مثلاً ، واجب ديني ، لانه ضروري لحفظ البدن ، على ان الاغراق فيه امر محظور ، لانه دافع للشهوة ، مثير للاهواء .

والزواج له فوائده وله آفاته . اما الفوائد فبقاء النسل ، ودفع غوائل الشهوة ، وترويح النفس بالمباح ، وتدبير المنزل ، واجر القيام باعباء الاسرة . واما الافات فطلب المال الحرام ، والقصور عن احتمال اذى النساء ، والاشتغال بالاهل عن الله. وعلى المؤمن اذاً ان يقدم على الزواج ان زادت في حقه الفوائد ، وان يحجم عنه ان زادت الآفات .

وكسب المال امر مباح ، على ان يسلك المؤمن الى ذلك السبل المشروعة ، فيمتنع عن كل حرام في التجارة والعقود ، في البيع والاجارة والشركة والقراض .

والسماع يكون مباحاً ومحظوراً. هو محظور ان يثير كامن الشهوات ، وهو مباح لمن يستلذ الصوت الحسن ، او يستعمله طريقاً الى الوجد الصوفي .

وكذا سائر الاعمال البشرية لا يقوم بها مؤمن الا اذا اتفقت وشرائع دينه وهدفت الى طاعة ربه .

٣ ـ المهلكات

في ربعي العبادات والعادات تعرّض الغزالي لما هو فرض على كل مؤمن ، واساسٌ لكل كمال .

واما في ربعي المهلكات والمنجيات فقد تخطّى ذلك ، فولج القلب يستقصي عيوبه وفضائله ، ويسلك به الى ذرى الكمال[1] .

•

اما معرفة العيوب فيصل اليها المريد باسترشاد شيخ بصير ، او صديق متدين ، كما يكتشفها على السنة اعدائه .

---

١) وان الغزالي يمهد لذلك بكتابين في عجائب القلب ، ورياضة النفس ، يحلل فيهما نفسية الانسان ، وما يستطيعه من كمال ويعترضه من عقبات .

ان الانسان بقلبه . والقلب هو الروح ، او النفس ، او العقل ، اي تلك اللطيفة الروحانية ، المدركة للاشياء . وان القلب هو « العالم بالله ، وهو المتقرّب الى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعي الى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه » (الاحياء ٣ : ص ٢)

وان القلب في الجسد كملك في مدينة ، يدبر شؤون الجسد ، ويخضع لارادته جنود . وان جنود القلب حواس واعضاء ، واهم شهوة وغضب ، وخيال وفكرة وذاكرة ، « وانما افتقر القلب الى هذه الجنود ، من حيث افتقاره الى المركب والزاد لسفره ، الذي لاجله خلق ، وهو السفر الى الله .» (الاحياء : ٣ : ص٥)

وللقلب عملان ، اكتساب علم ، وتحصيل كمال . اما العلم فيناله بتعلم بشري ، ويناله بالهام الهي . وان الالهام لا يحصل الا بتطهير القلب : « القلوب كالاواني ، فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء . فالقلوب المشغولة بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله .» (الاحياء : ٣ : ص ٧)

وان مبدأ الاعمال الخواطر ، ان دعت الى الخير كانت الهاماً صادراً عن ملاك ، وان دعت الى الشر كانت وسواساً صادراً عن الشيطان . وان القلب قابل ، على

وعيوب النفس هي : شهوة البطن ، وشهوة الجسد ، وآفات اللسان ، والغضب ، والحقد ، والحسد ، والبخل ، وحب الجاه ، والرياء ، والكبر والعجب ، والغرور .

يتعرض الغزالي لهذه العيوب واحدًا واحدًا ، فيحدد لك ماهيتها واسبابها ، ويبين لك كيف تروض النفس على معالجتها واستئصالها ، وما يجب ان تمارسه من تمارين ، وتقوم به من تأملات ، ويورد لك آيات من القرآن ، واحاديث منسوبة للنبي ، واقوالًا لمشاهير المتصوفة .

وانه لبحث طويل حقًا ، يضيق عنه مثل هذا الدرس ، ان نفصل لك ما قاله الغزالي في عيوب النفس عيباً عيباً . ولنعرض ، كمثال ، تحليله لشهوة البطن :

ان شهوة البطن ، في نظره ، اصل كل العيوب . بها اخرج آدم وحواء من الجنة ، ومنها تنبعث شهوة اللذة الجسدية . ويتبع هاتين الشهوتين شهوة المال والجاه ، وسيلة التمتع بهما . ويتشعب عن طلب المال والجاه آفات كثيرة ، كالكبر والرياء ، كالحسد والحقد ، ومنبع كل ذلك البطن .

وبعد ان يورد الغزالي احاديث كثيرة في فضيلة الجوع ، واقوالًا عن الانبياء والاولياء ، يعدد فوائده ، فاذا هي للبدن صحة ، وللعقل صفاء ، وعلى القناعة والصدق عون ، واذا بالجوع تكسر شهوات المعاصي ،

التساوي ، للالهام والوسواس ، متجاذب بين الاثنين ، « والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم . . . واكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين . » (الاحياء : ٣ : ص ٢١)

وان الشهوة والغضب ، وما يتشعب عنها من حب الغنى ، وشهوة المأكل ، وطلب الزينة ، والتعصب للمذهب ، لابواب الشيطان الى القلب . وان على الانسان ان يجاهد لكي يروض جسده وحواسه ، ويضبط شهوته وغضبه ، فيطهر قلبه ويصفو ويبلغ علماً وكمالًا . وان رياضة النفس لامر واجب ، وان اصلاح الاخلاق لشيء ممكن .

ويسهل السهر والمواظبة على العبادة ، ويذكر الانسان بلاء الله وعذابه.

وينتهي الغزالي الى كيفية رياضة المريد على الجوع ، فيتكلم عن كمية الطعام ، ونوعه ، وعن اوقات تناوله . على المريد ان يقلل من كمية الطعام ، فلا يأخذ اكثر مما يحتاج اليه لقيام جسده وبقاء قواه ، وليكن ذلك على التدريج ، لان من اعتاد الاكل الكثير ، وانتقل دفعة الى القليل ، لم يحتمله مزاجه . وعليه ان يمتنع عن شهي الطعام ، ولذة اللحوم ، كي لا يسكن الى نعيم الدنيا ، ويسعى وراء المعاصي . وان اقل ما يُطلب منه الاقتصار في اليوم على اكلة واحدة ، واكثر ما يطلب منه ان يطوى ثلاثة ايام . وان بعض سالكي الطريقة يطوون ثلاثين يوماً ، واربعين ، وخمسين .

ويحذر الغزالي المريد من الرياء ، من الامتناع عن الاكل مع الجماعة للاكل في الخلوة ، كما يحذره من خطر العجب ، وحب الاشتهار بالتعفف وفضيلة الجوع . وانه يكون حينذاك قد خالف شهوة الاكل ، واطاع شهوة الجاه ، وهذا كمن هرب من عقرب ، وفزع الى حيّة .

نكتفي بهذا المثل ، وندعوك الى مطالعة ما كتبه الغزالي في باقي عيوب النفس ، فانك واجد فيه نفعاً كثيراً .

٤ ـ المنجيات

رأينا الى الآن ما نفح الغزالي من روح دينية في فروض الشرع ، وآداب الحياة ، ثم رأينا كيف دعا الى طهارة القلب وصفائه برياضة النفس ومجاهدة الاهواء . وها هو يطفر بالصوفي الى اقصى الكمال ، الى عرض الفضائل او المقامات الروحية التي تنتهي به الى حب الله والفناء فيه .

هذه المقامات تسعة وهي : التوبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف ،

والرجاء ، والفقر ، والزهد ، والتوحيد ، والتوكل ، والمحبة .

ينتظم كل مقام من ثلاثة امور : من علم ، وحال ، وفعل .

اما العلم فمن شأن العقل ، به يعرف ما هو المقام ، وما الداعي الى طلبه ، وكيف يمكن الوصول اليه .

حتى اذا تمّ هذا العلم ، انبعثت في النفس عاطفة ، وثار في القلب شعور ، اي مالت النفس الى ما رآه العقل من خير . وهذا هو الحال.

ومتى حصل للانسان العلم والحال،نتج عنها ارادة وقصد،فكان الفعل .

اذاً العلم يولد الحال ، والحال يدفع الى العمل ، « والاول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث ، ايجاباً اقتضاه اطراد سنة الله . »[1]

خذ مثلاً ، التوبة . فالعقل يرى عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجاباً يفصله عن الله محبوبه . والقلب يتألم لفوات المحبوب ، ويندم على ما صدر منه . والارادة تعزم على ترك كل ذنب في الحال والاستقبال . فما رآه العقل علم ، والندم حال ، وقصد ترك الذنوب فعل[2].

٭

ونردد هنا ما قلناه ، حين تكلمنا عن عيوب النفس ، من ان هذا الدرس يضيق عن بحث المقامات الصوفية مقاماً مقاماً . على اننا نورد مثلين ، فنوجز تحليله للتوكل ، ثم للمحبة .

---

١) الاحياء : ٤ : ص ٣

٢) وان الغزالي يرى امكان التسلسل المعاكس ، اي ان يثير الفعل الشعور ، وان يقوي الشعور ثقة العقل . قال الغزالي : « ان المواظبة على الطاعات لها تأثير في تأكيد طمأنينة النفس الى الاعتقاد التقليدي ، ورسوخه في النفس . وهذا امر لا يعرفه الا من سبر احوال نفسه ، وراقبها في وقت المواظبة على الطاعة ، وفي وقت الفترة ، ولاحظ تفاوت الحال في باطنه . . . فان من يعتقد الرحمة في قلبه على يتيم ، فان اقدم على مسح رأسه ، وتفقد امره ، صادف في قلبه ، عند ممارسة العمل ، بموجب الرحمة ، زيادة تأكيد في الرحمة . ومن يتواضع بقلبه لغيره ، فاذا عمل بموجبه ،

التوكل هو اعتماد القلب على الوكيل ، وله في القوة والضعف ثلاث درجات : الاولى ان تتكل على الله اتكالك على الوكيل . الثانية ان تتكل عليه اتكال الطفل على امه ، الذي لا يعرف غيرها ولا يفزع الى سواها . والثالثة ان تكون بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل ، لا تفزع اليه ولا تسأله ، لانك تعرف انه بحاجاتك اعلم ، وعلى قضائها احرص .

والمحبة هي غاية المقامات وذروتها . رأى بعض العلماء ان محبة الله غير ممكنة ، فخالفوا بذلك شواهد الشرع وشواهد العقل . ان الشرع قال بمحبة الله ، بدليل الآية : « يحبهم ويحبونه » ، والآية الاخرى : « والذين آمنوا اشد حباً لله . » اما العقل فيرى ان اسباب الحب خمسة : نحب وجودنا وبقاءنا ، ونحب من يحسن الينا في ما يعود الى هذا الوجود وبقائه ، ونحب من يحسن الى الناس ، ونحب كل جميل في ذاته ، ونحب من بيننا وبينه مناسبة خفية في الباطن . والحال ان هذه الصفات قد اجتمعت في الله ، وبلغت فيه اقصى درجات الكمال ، لان منه كل

ساجداً له ، او مقبلاً يده ، ازداد التعظيم والتواضع في قلبه . » (الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٠٢)

واستناداً الى هذا المبدأ ، يرى الغزالي انّ ما يقوم به الصوفيون من حركات خارجية مفيد لاثارة الوجد ، فالوصول الى مشاهدة الله . قال الغزالي ، اثناء كلامه عن آداب السامع : « ان رقص او تباكى ، فهو مباح ، اذا لم يقصد به المراآة ، لان التباكي استجلاب للحزن ، والرقص سبب في تحريك السرور . » وقل مثل ذلك في الذكر والسماع ، فان مراجعة اسم الله او احدى صفاته ، وان الغناء بشعر صوفي او سماعه ، لافعال جسدية تمهد لحالة الوجد ، وتساعد عليه .

واذاً الشعور مسبَّب بين سببين ، هما العلم والعمل . واذاً حب الله ، هدف الصوفي الاقصى ، هو رهن ايمان وتقى ، رهن تأمل روحي ورياضة نفس ، رهن تفكر في صفاء القلب ، وعمل على ايجاد هذا الصفاء . وقد الحّ الغزالي كثيراً على الجمع بين العلم والعمل .

وجود ، وبه كل بقاء ، ومنه كل احسان ، وفيه اكمل جمال ، وبينه وبين الانسان مناسبة باطنة . فحب الله اذاً ممكن ، والله احق كائن بالحب .

نكتفي بهذين المثلين ، وندعوك الى مطالعة ما كتبه الغزالي في مقامات الكمال ، لترى ما عنده من غنى فكري ، ومن تحليل نفسي دقيق .

٥

على انه من الضروري ان نرى ما يلجأ اليه الصوفي من تمارين صوفية، وما ينتهي اليه في ذروة صعوده .

اما اهم التمارين الصوفية فهي :

١ – الذكر : هو الخلو بالنفس ،وتفريغ القلب ،والاقبال على الله بمراجعة اسمه ، او احدى صفاته ، باللسان الى ان يكلّ ، وبالقلب الى ان يمّحي كل لفظ ، ولا يبقى سوى المعنى .

٢ – السماع : هو الغناء بشعر يحرّك في القلب حبَّ الله ، والقرب منه .

٣ – الوجد : هو ما يتبع الذكر او السماع من حالات نفسية ، ومن تحريك للظاهر بالرقص والتصفيق ، او بالانين والبكاء . وقد يتبع ذلك تمزيق الثياب . ويؤثر الغزالي ضبط النفس ، والامساك عن كل حركة خارجية ، انما يعذر من غلب عليه السكر ، فرقص ، وبكى ، ومزّق ثوبه .

اما ما ينتهي اليه الصوفي في وجده ، فاثنتان :

١ – الفناء في الله : الصوفي يشاهد الله ، فيتجلّى له من لطائفه ما لا يوصف ، ويغيب هو عن نفسه ، وعن كل ما يحيط به ، وكأنه والله

واحد . على ان هذه الحالة لا تتجاوز مشاهدة الله ، والقرب منه ، وكل قول بالحلول خطأ . وهكذا شجب الغزالي من الصوفية ما لاجله اضطهدت السنة كبار المتصوفين كالبسطامي ، والحلاج وغيرهما . ولاجل ذلك ايضاً شجب النطق باقوال الشطح – من مثل انا الحق ، او سبحاني ما اعظم شأني – وان عذر من غلب عليه السكر ، فافقده عقله ، وانطقه بها .

٢ – الالهام الصوفي : القلب كالمرآة ، ان صفا من كل عيب ، وبلغ الله بالحب ، انعكست فيه صور اللوح المحفوظ – وهي صور كل موجود – فرأى كل شيء ، وعرف الماضي والحاضر والمستقبل .

والقلب كحوض محفور . انت تستطيع ان تملأ الحوض بماء تسوقه اليه من الخارج ، او بماء اصفى وادوم واغزر تفجّره بالحفر في اسفل الحوض . وهكذا تساق العلوم الى القلب بواسطة انهار الحواس ، او تتفجر في اعماقه الهاماً بواسطة الخلوة والعزلة وتطهير القلب . والالهام يغني عن كل علم شرعي او عقلي ، ويولي معارف اخرى ايضاً .

٥

فقلب الصوفي اذاً هو ذاك الاناء المصطفى الذي نقاه الله من الارجاس ، وزانه بالاصباغ والالوان ، ليسكب فيه خمرة حبه ، ويتجلى له في بهائه ، ويعكس فيه لآلئ نوره .

والصوفي هو ذاك الانسان المختار الذي جاز حدود النوع ، ونهل من منبع الحياة ، فاذا هو يحس ما لا يحس الناس ، ويرى ما لا يرون ، واذا هو دفق حب تغمر مجاريه النفوس ، وسبيل الى الحق يهتدي الناس بهديه .

وان الكمال الصوفي لذروة ما وصل اليه الانسان ، وخير ما يلجأ اليه الناس لينجوا من عبودية الاهواء ، وينعموا باسنى جمال واصفى حق .

حكم عام

نشأ الغزالي على الاسلام ، فوعى عقائده ، ومارس فروضه . وتربى الغزالي على يد والد تقي ووصي صوفي ، ثم عاش في كنف وزير يشجع المتصوفين . وقرأ الغزالي كتب الفلاسفة ، ورأى لهم في الاسلام نظريات واراء . وعرضت له في عقله شبهات ، وفي ايمانه شكوك . فكيف لاءم الغزالي بين كل هذه العناصر ، والى مَ انتهى ؟ هذا هو السؤال الذي اعيا اكثر من باحث ، واليك ما نراه :

١ — نشأ الغزالي مسلماً مؤمناً ، لا بل ولداً تقياً . على انه ايمان ما سبقه بحث ، وتقوى ما تغلبت على عقبات .

٢ — ثم كان الشباب ، وكان التفكير بصحة الايمان الموروث ، ونفع العبادة والصلاة ، وبدأ الريب يتسرب الى العقل ، والفتور يدبّ الى القلب . وقد دامت هذه الحالة زمناً ، والغزالي حائر ، لا هو ذاك الحدث المؤمن التقي ، ولا هو الكافر الذي خلع كل ايمان . ولعل ريبه هذا بدأ في ظل امام الحرمين .

٣ — وعُيّن الغزالي استاذاً في بغداد ، وزاد تفكيره في صحة ما يعلّم من دين ، واقبل يطالع تآليف الفلاسفة ، فبلغت شكوكه الذروة ، وكاد يخلع كل ايمان .

٤ — على ان مطالعات صوفية افاقت في اعماقه شعوراً دينياً هاجعاً ،

ومرضاً ألمّ به ضخّم لديه فكرة الآخرة وخوفه من سوء المصير ، فكان ما وصف لنا في المنقذ من صراع داخلي عنيف ، ومن تردد بين شهوات الدنيا ودواعي الآخرة .

٥ – وقد تغلب في الواقع الشعور الديني ، وبـدا التصوف ذروة كمال ، فترك الغزالي بغداد ، ومضى زاهداً عابداً متصوفاً .

٦ – على ان الغزالي ما كان بالقلب الذي يستقر ، ولا بالعقل الذي يطمئن .

لم يستقر قلبه على شعور ديني : بدأ ولداً تقياً ، ثم فتر واهمل ، ثم اقتلعه من وطنه حب جارف ، ثم عاوده شيء من الفتور فعاد به الى اهله يُعنى بضرورات العيش ، ويمارس ثانية التعليم . وهـذا التردد في الشعور الديني من ميزات القلوب الحسّاسة ، التي طغا فيها الاحساس على العمل ، والتأمل النفسي الباطني على الجهاد في معترك الحياة .

ولم يطمئن عقله الى اعتقاد : بدأ سنياً اشعرياً ، ثم تردد وشكّ ، ثم عاوده ايمان فيه من اشعريته الاولى ، وفيـه من اقوال المتصوفين بالكشف والالهام ، وفيه من اراء الفلاسفة . هو عقل ذكيّ يطمح الى فهم كل رأي ، وهو عقل اختياري يجني ما يبدو له صالحاً في كل مذهب .

٧ – على ان الغزالي كان يحرص على مجاراة البيئة،ويجزع من ان يتهم، فظلت عقائد السنة عقائد كتبه ، يعرضها في كتب الكلام ، ويدافع عنها ضد باطني وفيلسوف ، ويطهر بها التصوف من اباحية وحلول . لهذا اخفى شكوكه الى ان زالت ، واودع تآليفـه ما لم يكن يثق به ، وضنّ باراء فما نشرها في الناس .

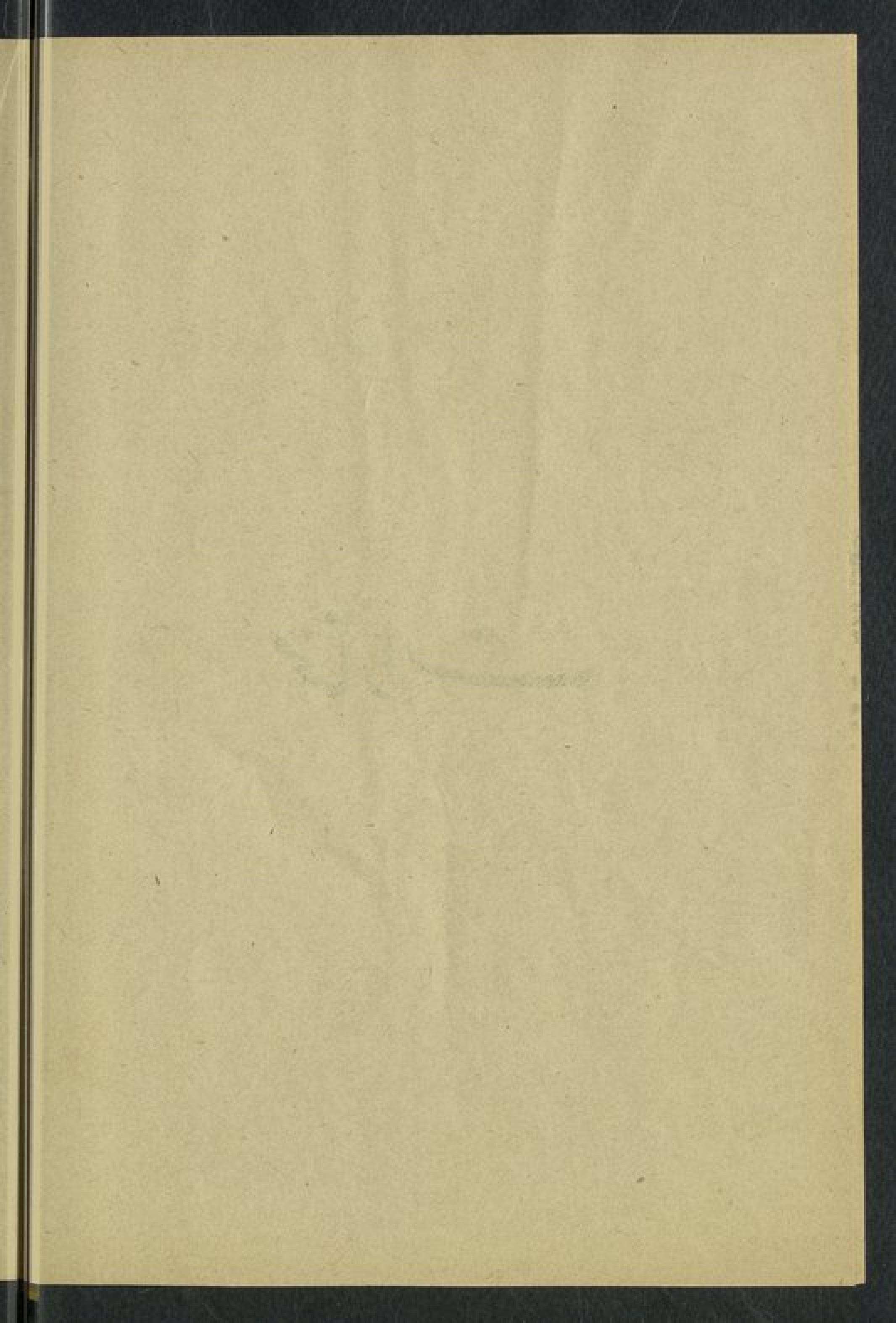
٨ – وان هذا التردد عند الغزالي ، هذا التنقل من حال الى حال،

وهذا التناقض بين ما كان يعلِم رسمياً وبين ما كان يعتقد في السريرة ، هما ما لبّس على الناس حقيقة اعتقاده ، ودفع الباحثين الى الغلوّ اعجاباً او اتهاماً .

قال فيخت : « فلسفتنا انما هي تاريخ قلبنا . » وان فلسفة الغزالي كانت تاريخ قلبه ، تاريخ قلب قلقٍ يتصنع الاستقرار ، وقلب غنيّ متطلع لا يوصد بابه امام رأي او شعور .



مختارات



بين العقل والنقل

الحمد لله ، الذي اجتبى من صفوة عبادة عصابةَ الحق واهل السنة ، . . . وعمر افئدتهم بانوار اليقين ، حتى اهتدوا بها الى اسرار ما انزله على لسان نبيه ، . . . واطلعوا على طريق التلفيق[1] بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول ، وتحققوا ان لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا ان من ظنَّ من الحشوية وجوب الجمود على التقليد واتبـاع الظواهر ، ما اتوا به الا من ضعف العقول وقلة البصائر ، وان من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ، ما اتوا به الا من خبث الضمائر . فميل اولئك الى التفريط ، وميل هؤلاء الى الافراط ، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط ، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد ، والاعتماد على الصراط المستقيم ، فكلا طرفي قصد الامور ذميم .

(الاقتصاد في الاعتقاد : ص ٢)

الناس والحق

ان الناس اربع فرق :

الفرقة الاولى : آمنت بالله ، وصدقت رسوله ، واعتقدت الحق واضمرته ، واشتغلت اما بعبادة واما بصناعة . فهؤلاء ينبغي ان يتركوا وما هم عليه ، ولا تحرك عقائدهم . . .

---

١) لفق الشقتين : ضمّ احداهما الى الاخرى فخاطهما . ولعل الكلمة في الاصل « التوفيق » .

الفرقة الثانية : طائفة مالت عن اعتقاد الحق ، كالكفرة والمبتدعة . فالجافي الغليظ منهم ، الضعيف العقل ، الجامد على التقليد ، الممتري على الباطل من مبتدأ النشوء الى كبر السنّ ، لا ينفع معه الّا السوط والسيف ، فاكثر الكفرة اسلموا تحت ظلال السيوف ، اذ يفعل الله بالسيف والسنان ما لا يفعل بالبرهان واللسان[١] ...

الفرقة الثالثة : طائفة اعتقدوا الحق تقليداً وسماعاً ، ولكن خصّوا في الفطرة بذكاء وفطنة ، فتنبهوا من انفسهم لاشكالات تشككهم في عقائدهم ، وزلزلت عليهم طمأنينتهم ... فهؤلاء يجب التلطف بهم في معالجتهم ، باعادة طمأنينتهم ، واماطة شكوكهم ، بما امكن من الكلام المقنع ، المقبول عندهم ...

الفرقة الرابعة : طائفة من اهل الضلال ، يُتفرس فيهم مخائل الذكاء والفطنة ، ويتوقع منهم قبول الحق بما اعتراهم في عقائدهم من الريبة ، او بما يلين قلوبهم لقبول التشكيك بالجبلة والفطرة . فهؤلاء يجب التلطف بهم في استمالتهم الى الحق ، وارشادهم الى الاعتقاد الصحيح ، لا في معرض المحاجة والتعصب ، فان ذلك يزيد في دواعي الضلال ، ويهيج بواعث التمادي والاصرار ... والمجادلة والمعاندة داء محض لا دواء له ، فليتحرز المتدين منه جهده ، وليترك الحقد والضغينة ، وينظر الى كافة خلق الله بعين الرحمة ، وليستعن بالرفق واللطف في ارشاد من ضلّ ...

(الاقتصاد : ص ٦-٨)

---

١) هذا رأي من الغزالي غريب ، فان عقلاً لا يفعل فيه البرهان لغلاظته ، كيف يفعل فيه السيف ، فيولّد اقناعاً ، ويوجد ايماناً ؟ ان السيف قد ينطق اللسان بما لا يؤمن به القلب ، وما هذا من الدين في شيء ، ان هذا الا كذب ورياء !

الاصلح غير واجب

ندّعي انه لا يجب عليه (على الله) رعاية الاصلح لعباده ، بل له ان يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد ، خلافاً للمعتزلة . . .

انّا نفرض ثلاثة اطفال ، مات احدهم وهو مسلم في الصبا ، وبلغ الآخر واسلم ومات مسلماً بالغاً ، وبلغ الثالث كافراً ومات على الكفر . فان العدل عندهم ان يخلد الكافر البالغ في النار ، وان يكون للبالغ المسلم في الجنة رتبة فوق رتبة الصبي المسلم . فاذا قال الصبي المسلم : يا ربَ ، لمَ حططت رتبتي عن رتبته ؟ فيقول : لانه بلغ فاطاعني ، وانت لم تطعني بالعبادات بعد البلوغ . فيقول : يا رب ، لانك امتني قبل البلوغ ، فكان صلاحي في ان تمدّني بالحياة حتى ابلغ ، فاطيع ، فانال رتبته ، فلمَ حرمتني هذه الرتبة ابد الابدين ، وكنت قادراً على ان توصلني لها ؟ فلا يكون له جواب الا ان يقول : علمت انك لو بلغت لعصيت وما اطعت ، وتعرضت لعقابي وسخطي ، فرأيت هذه الرتبة النازلة اولى بك ، واصلح لك من العقوبة . فينادي الكافر البالغ من الهاوية ، ويقول : يا رب ، أو ما علمت اني اذا بلغت كفرت ؟ فلو امتني في الصبا ، وانزلتني في تلك المنزلة النازلة ، لكان احب الي من تخليد النار ، واصلح لي ، فلمَ احييتني ، وكان الموت خيراً لي ؟ فلا يبقى له جواب البتة . . .

ان الاصلح للعباد كلهم ليس بواجب ، ولا هو موجود .

(الاقتصاد في الاعتقاد : ٨٣–٨٤)

المعاد

لقد كفّر الغزالي الفلاسفة لانكارهم المعاد الجسماني. واليك بعض ما جاء للغزالي في وصف المعاد، وجلّه في المعاد الجسماني :

تفكّر في اهل الجنة، وفي وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم، جالسين على منابر الياقوت الاحمر، في خيام من اللؤلؤ الرطب الابيض، فيها بسط من العبقري[1] الاخضر، متكئين على ارائك منصوبة على اطراف انهار مطّردة بالخمر والعسل، محفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بالحور العين، من الخيّرات الحسان، كانهن الياقوت والمرجان، لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان. يمشين في درجات الجنان، اذا اختالت احداهن في مشيها، حمل اعطافها سبعون الفاً من الولدان، عليها من طرائف الحرير الابيض ما تتحير فيه الابصار مكلّلات بالتيجان، المرصّعة باللؤلؤ والمرجان . شكِلات، غَنِجات، عطرات، آمنات من الهرم والبؤس، مقصورات في الخيام، في قصور من الياقوت، بنيت وسط روضات الجنان. قاصرات الطرف، عِين .

ثم يطاف عليهم وعليهن باكواب واباريق، وكأس من معين بيضاء، لذة للشاربين. ويطوف عليهم خدام وولدان، كامثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون .

في مقام امين، في جنات وعيون، في جنات ونهر، في مقعد صدق، عند مليك مقتدر، ينظرون فيها الى وجه الملك الكريم، وقد اشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لا يرهقهم قتر ولا ذلة، بل عباد مكرمون، وبانواع التحف من ربهم يتعاهدون، فهم فيها اشتهت انفسهم خالدون، لا يخافون فيها ولا يحزنون .

---

١) نوع من البسط الفاخرة .

وهم من رَيْبِ المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ، ويأكلون من اطعمتها ، ويشربون من انهارها لبناً وخمراً وعسلاً ، في انهار اراضيها من فضة ، وحصباؤها مرجان ، وعلى ارضٍ ترابها مسك اذفر[١] ، ونباتها زَعفران . ويمطرون من سحاب ، فيها من ماء النِسرين[٢] ، على كثبان الكافور . ويؤتون باكواب – واي اكواب ! – باكواب من فضة ، مرصّعة بالدر والياقوت والمرجان : كوب فيه من الرحيق المختوم ، ممزوج بـه السلسبيل العذب ! كوب يشرق نوره ، من صفاء جوهره ، يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته ، لم يصنعه آدميّ فيقصّر في تسوية صنعته ، وتحسين صناعته ، في كف خادم يحكي ضياؤ وجهه الشمس في اشراقها ولكن من اين للشمس مثل حلاوة صورته ، وحسن اصداغه ، وملاحة احداقه؟ . . .

وسئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، عن قوله : « ومساكن طيّبة في جنات عدن » ، قال : قصور من لؤلؤ ، في كلٍ قصر سبعون داراً من ياقوت احمر ، في كل دار سبعون بيتاً من زمرد اخضر ، في كل بيت سرير ، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائـدة سبعون لوناً من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن في كل غداة ، يعني من القوة ، ما يأتي على ذلك اجمع ! . . .

وقال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم : ان الرجل من اهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء ، واربعة آلاف بكر ، وثمانية آلاف ثيب ، يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا . . .

قال الله تعالى : « للذين احسنوا الحسنى ، وزيادة ! » . وهذه الزيادة

---

١) اذفر : طيّب الرائحة .

٢) ورد ابيض عطر الرائحة .

هي النظر الى وجه الله تعالى ، وهي اللذة الكبرى ، التي يُنسى فيها نعيم اهل الجنة. . .قال جرير بن عبد الله البجلي : كنا جلوساً عند رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، فرأى القمر ليلة البدر ، فقال : انكم ترون ربكم ، كما ترون هذا القمر ، لا تُضامون في رؤيته! . .وليس لسرور اهل الجنة ، عند سعادة اللقاء ، منتهى . بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة الى لذة اللقاء . وقد اوجزنا في الكلام هنا ، لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضى. فلا ينبغي ان تكون همة العبد من الجنة بشيء ، سوى لقاء المولى ، واما سائر نعيم الجنة، فانه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى[1] !

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب الموت وما بعده)

ايها الولد

ايها الولد : النصيحة سهلة ، والمشكل قبولها ، لانها في مذاق متبعي الهوى مرّة ، اذ المناهي محبوبة في قلوبهم ، وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمي ، ومشتغلاً في فضل النفس ، ومناقب الدنيا . فانه يحسب ان العلم ، المجرَّد له ، ستكون نجاته وخلاصه فيه ، وانه مستغنٍ عن العمل ، وهذا اعتقاد الفلاسفة . سبحانَ اللهِ العظيم ، لا يعلم هذا المغرور انه حين حصّل العلم ، اذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد ، كما قال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم : اشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه . وروي ان الجنيد ، قدّس الله سرّه ، رؤي في المنام بعد موته ، فقيل له : ما الخبر ، يا ابا قاسم ؟ قال : طاحت تلك

١) ألا يكاد يعود الغزالي هنا الى رأي الفلاسفة ، الذين كفّرهم ؟ !

العبارات ، وفنيت تلك الاشارات ، وما نفعنا الا ركيعات ركعناها في جوف الليل !

•

ايها الولد : كم من ليالٍ احييتها بتكرار العلم ، ومطالعة الكتب ، وحرمت على نفسك النوم . لا اعلم ما كان الباعث فيه . ان كان نيل غرض الدنيا ، وجذب حطامها ، وتحصيل مناصبها ، والمباهاة على الاقران والامثال ، فويل لك ثم ويل لك . وان كان قصدك فيه احياء شريعة النبي ، صلّى الله عليه وسلّم ، وتهذيب اخلاقك ، وكسر النفس الامّارة بالسوء فطوبى لك ثم طوبى لك . ولقد صدق من قال شعرًا :

سهر العيون لغير وجهك ضائعٌ وبكاؤهن لغير فقدك باطل

•

ايها الولد : عش ما شئت ، فانك ميت . واحببْ ما شئت ، فانك مفارقه واعملْ ما شئت فانك مجزيّ به .

•

ايها الولد : العلم بلا عمل جنون ، والعمل بغير علم لا يكون.

واعلم ان العلم لا يبعدك اليوم عن المعاصي، ولا يحملك على الطاعة ، ولن يبعدك غدًا عن نار جهنم . واذا لم تعمل اليوم ، ولم تدارك الايام الماضية ، تقول غدًا يوم القيامة: فارجعنا نعمل صالحاً . فيقال : يا احمق ، انت من هناك تجيء !

•

ايها الولد : ينبغي لك ان يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع ، اذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة . وينبغي لك ان لا تغتر بالشطح وطامات الصوفية ، لان سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة ، وقطع شهوة النفس ، وقتل هواها بسيف الرياضة ، لا بالطامات والترهات ...

واعلم ان بعض مسائلك ، التي سألتني عنها ، لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول ، ان تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي ، والا فعلمها من المستحيلات ، لانها ذوقية . وكل ما يكون ذوقياً ، لا يستقيم وصفه بالقول ، كحلاوة الحلو ، ومرارة المر ، لا يعرف الا بالذوق . . .

واما البعض الذي يستقيم له الجواب ، فقد ذكرناه في احياء العلوم وغيره ونذكر ههنا نبذاً منه ، ونشير اليه فنقول : قد وجب على السالك اربعة امور :

الامر الاول : اعتقاد صحيح ، لا يكون فيه بدعة .

والثاني : توبة نصوح ، لا يرجع بعدها الى الزلة .

والثالث: استرضاء الخصوم ، حتى لا يبقى لاحد عليك حق .

الرابع : تحصيل علم الشريعة ، قدر ما تؤدى به اوامر الله تعالى، ثم من علوم الاخرة ما تكون به النجاة . . .

٭

ايها الولد : . . . ان حاتماً الاصم كان من اصحاب الشقيق البلخي، رحمة الله عليهما . فسأله يوماً قال: صاحبتني منذ ثلاثين سنة ، ما حصلت فيها ؟ قال : حصلت ثماني فوائد من العلم . . . :

الفائدة الاولى : اني نظرت الى الخلق ، فرأيت لكل منهم محبوباً ومعشوقاً ، يحبه ويعشقه . وبعض ذلك المحبوب يصاحبه الى مرض الموت . وبعضه الى شفير الهاوية . ثم يرجع كله ، ويتركه فريداً وحيداً ، ولا يدخل معه في قبره منهم احد . فتفكرت وقلت : افضل محبوب المرء ما يدخل في قبره ، ويؤانسه فيه ، فما وجدته غير الاعمال الصالحة ، فاخذتها محبوباً لي ، لتكون سراجاً لي في قبري ، وتؤانسني فيه ، ولا تتركني فريداً .

الفائدة الثانية : اني رأيت الخلق يقتدون باهوائهم ، ويبادرون الى

مرادات انفسهم ، فتأملت قوله تعالى : « واما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فانّ الجنة هي المأوى » ، وتيقنت ان القرآن حق صادق ، فبادرت الى خلاف نفسي ، وتشمرت بمجاهدتها ، وما متعتها بهواها ، حتى رضيتْ بطاعة الله ، سبحانه وتعالى ، وانقادت .

الفائدة الثالثة : اني رأيت كل واحد من الناس يسعى في جمع حطام الدنيا ، ثم يمسكه ، قابضاً يده عليه ، فتأملت في قوله تعالى : « ما عندكم ينفد ، وما عند الله باقٍ » ، فبذلت محصولي من الدنيا لوجه الله تعالى ، ففرقته بين المساكين ، ليكون ذخراً لي عند الله تعالى .

الفائدة الرابعة : اني رأيت بعض الخلق ظنّ شرفه وعزّه في كثرة الاقوام والعشائر ، فاغترّ بهم . وزعم آخرون انه في ثروة الاموال ، وكثرة الاولاد ، فافتخروا بها . وحسب بعضهم الشرف والعز في غصب اموال الناس ، وظلمهم ، وسفك دمائهم . واعتقدت طائفة انه في اتلاف المال واسرافه وتبذيره . وتأملت في قوله تعالى : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، فاخترت التقوى . . .

الفائدة الخامسة : اني رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً ، ويغتاب بعضهم بعضاً ، فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم . فتأملت في قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » ، فعلمت ان القسمة كانت من الله تعالى في الازل ، فما حسدت احداً ، ورضيت بقسمة الله تعالى .

الفائدة السادسة : اني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضاً ، لغرض وسبب ، فتأملت قوله تعالى : « ان الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوًا » ، فعلمت انه لا تجوز عداوة احد غير الشيطان .

الفائدة السابعة : اني رأيت كل احد يسعى بجد ، ويجتهد بمبالغة لطلب القوت والمعاش ، بحيث يقع به في شبهة وحرام ، ويذل نفسه ،

وينقص قدره . فتأملت في قوله تعالى : « وما من دابة في الارض، الا على الله رزقها » ، فعلمت ان رزقي على الله تعالى ، وقد ضمنه ، فاشتغلت بعبادته ، وقطعت طمعي عمن سواه .

الفائدة الثامنة : اني رأيت كل واحد معتمداً على شيء مخلوق ، بعضهم الى الدينار والدرهم ، وبعضهم الى المال والملك ، وبعضهم الى الحرفة والصناعة ، وبعضهم الى مخلوق مثله . فتأملت في قوله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ امره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً » ، فتوكلت على الله تعالى ، فهو حسبي ، ونعم الوكيل .

فقال شقيق : وفقك الله تعالى ! اني قد نظرت التوراة ، والانجيل ، والزبور ، والفرقان ، فوجدت الكتب الاربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية ، فمن عمل بها ، كان عاملاً بهذه الكتب الاربعة .

•

ايها الولد : ... انه ينبغي للسالك شيخ مرشد مربّ ، ليخرج الاخلاق السيئة منه بتربيته ، ويجعل مكانها خلقاً حسناً . ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح ، الذي يخرج الشوك ، ويخرج النباتات الاجنبية من بين الزرع ، ليحسن نباته ، ويكمل ريعه ...

•

ايها الولد : اني انصحك بثمانية اشيا ، اقبلها مني لئلا يكون علمك خصماً عليك يوم القيامة ، تعمل منها اربعة ، وتدع منها اربعة .

اما اللواتي تدع :

احدها ان لا تناظر احداً في مسألة ، ما استطعت ، لان فيها آفات كثيرة ، فاثمها اكبر من نفعها ، اذ هي منبع كل خلق ذميم ، كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها . نعم ، لو وقع مسألة بينك

وبين شخص او قوم ، وكانت ارادتك فيها ان تظهر الحق ، ولا يضيع ، جاز البحث . . .

والثاني مما تدع هو ان تحذر من ان تكون واعظاً ومذكرًا ، لان فيه آفة كثيرة ، الا ان تعمل بما تقول اولًا ، ثم تعظ به الناس . . .

والثالث مما تدع ان لا تخالط الامراء والسلاطين ، ولا تراهم ، لان رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة . ولو ابتليت بهم ، دع عنك مدحهم وثناءهم ، لان الله تعالى يغضب اذا مدح الفاسق والظالم . ومن دعا لطول بقائهم ، فقد احب ان يعصى الله في ارضه .

والرابع مما تدع ان لا تقبل شيئاً من عطاء الامراء وهداياهم ، وان علمت انها من الحلال ، لان الطمع منهم يفسد الدين ، لانه يتولد منه المداهنة ، ومراعاة جانبهم ، والموافقة في ظلمهم . . .

واما الاربعة التي ينبغي لك ان تفعلها :

فالاول ان تجعل معاملتك مع الله تعالى ، بحيث لو عامل معك بها عبدك ترضى بها منه ، ولا يضيق خاطرك عليه ، ولا تغضب . والذي لا ترضى لنفسك من عبدك المجازي ، فلا ترضَ ايضاً لله تعالى ، وهو سيدك الحقيقي .

والثاني : كلما عملت بالناس ، اجعله كما ترضى لنفسك منهم ، لانه لا يكمل ايمان عبد ، حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه .

والثالث : اذا قرأت العلم ، او طالعته ، ينبغي ان يكون علمك يصلح قلبك ، ويزكي نفسك ، كما لو علمت ان عمرك ما يبقى غير اسبوع . . . ولا يمر على عبد يوم وليلة الا ويمكن ان يكون موته فيها . . .

والرابع : ان لا تجمع من الدنيا اكثر من كفاية سنة .

ايها الولد : اني كتبت في هذا الفصل ملتمساتك ، فينبغي لك ان

تعمل بها ، ولا تنساني فيه من ان تذكرني في صالح دعائك ... واقرأ هذا الدعاء في اوقاتك ، خصوصاً اعقاب صلواتك :

اللهم ، اني اسألك من النعمة تمامها ، ومن العصمة دوامها ، ومن الرحمة شمولها ، ومن العافية حصولها ، ومن العيش ارغده ، ومن العمر اسعده ، ومن الاحسان اتمه ، ومن الانعام اعمه ، ومن الفضل اعذبه ، ومن اللطف اقربه . اللهم ، كن لنا ولا تكن علينا . اللهم ، اختم بالسعادة آجالنا ، وحقق بالزيادة آمالنا ، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا ، واجعل الى رحمتك مصيرنا ومآلنا ، واصبب سجال عفوك على ذنوبنا ، ومن علينا باصلاح عيوبنا ، واجعل التقوى زادنا ، وفي دينك اجتهادنا ، وعليك توكلنا واعتمادنا . اللهم ، ثبتنا على نهج الاستقامة ، واعذنا في الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة ، وخفف عنا ثقل الاوزار ، وارزقنا عيشة الابرار ، واكفنا واصرف عنا شر الاشرار ، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وامهاتنا واخواننا واخواتنا من النار ، برحمتك يا عزيز يا غفار ، يا كريم يا ستار ، يا عليم يا جبار ، يا الله يا الله يا الله ، برحمتك يا ارحم الراحمين.

آداب المتعلم والمعلم

اما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ، ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل :

الوظيفة الاولى : تقديم طهارة القلب عن رذائل الاخلاق ، ومذموم الاوصاف ، اذ العلم عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن الى الله تعالى ...

الوظيفة الثانية : ان يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، ويبعد عن الاهل والوطن ، فان العلائق شاغلة وصارفة ، وما جعل الله لرجل من

قلبين في جوفه. ومهما توزعت الفكرة ، قصرت عن درك الحقائق. ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه ، حتى تعطيه كلك . . .

الوظيفة الثالثة : ان لا يتكبر على العلم ، ولا يتأمر على المعلم، بل يلقي اليه زمام امره بالكلية في كل تفصيل ، ويذعن لنصيحته اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغي ان يتواضع لمعلمه ، ويطلب الثواب والشرف بخدمته . . .

الوظيفة الرابعة : ان يحترز الخائض في العلم ، في مبدأ الامر ، عن الاصغاء الى اختلاف الناس ، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا او من علوم الآخرة. فان ذلك يدهش عقله ، ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ، ويؤيسه عن الادراك والاطلاع. بل ينبغي ان يتقن اولًا الطريقة الحميدة الواحدة ، المرضية عند استاذه، ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب والشبه. وان لم يكن استاذه مستقلًا باختيار رأي واحد، وانما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها ، فليحذر منه ، فان اضلاله اكثر من ارشاده ، فلا يصلح الاعمى لقود العميان . . .

الوظيفة الخامسة : ان لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ، ولا نوعاً من انواعه ، الا وينظر فيه نظرًا يطلع به على مقصده وغايته . ثم ان ساعده العمر ، طلب التبحر فيه ، والا اشتغل بالاهم منه، واستوفاه، وتطرف من البقية ، فان العلوم متعاونة ، وبعضها مرتبط ببعض . . .

الوظيفة السادسة : ان لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعي الترتيب ، ويبتدئ بالاهم . فان العمر ، اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً ، فالحزم ان يأخذ من كل شيء احسنه ، ويكتفي منه بشمه ، ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه الى استكمال العلم ، الذي هو اشرف العلوم ، وهو علم الآخرة ، اعني قسمي المعاملة والمكاشفة. فغاية المعاملة المكاشفة ، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى.

ولست اعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العامي وراثة او تلقفاً ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم ، كما هي غاية المتكلم بل ذلك نوع يقين ، هو ثمرة نور ، يقذفه الله تعالى في قلب عبد ، طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث . . . فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ، ولا يرشدك اليه الا حرصك في الطلب . وعلى الجملة ، فاشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل ، وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، واقصى درجات البشر فيه رتبة الانبياء ، ثم الاولياء ثم الذين يلونهم . . .

الوظيفة السابعة : ان لا يخوض في فن ، حتى يستوفي الفن الذي قبله .

الوظيفة الثامنة : ان يعرف السبب ، الذي به يدرك اشرف العلوم . وان ذلك يراد به شيئان ، احدهما شرف الثمرة ، والثاني وثاقة الدليل وقوته . وذلك كعلم الدين وعلم الطب ، فان ثمرة احدهما الحياة الابدية ، وثمرة الآخر الحياة الفانية ، فيكون علم الدين اشرف . ومثل علم الحساب وعلم الطب ، فان علم الحساب اشرف لوثاقة ادلته وقوتها . وان نسب الحساب الى الطب ، كان الطب اشرف باعتبار ثمرته ، والحساب اشرف باعتبار ادلته ، وملاحظة الثمرة اولى . . .

الوظيفة التاسعة : ان يكون قصد المتعلم ، في الحال ، تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفي المآل القرب من الله . . .

الوظيفة العاشرة : ان يعلم نسبة العلوم الى المقصد ، كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد ، والمهم على غيره . . .

وظائف المرشد المعلم : . . .

الوظيفة الاولى : الشفقة على المتعلمين ، وان يجريهم مجرى بنيه . . . وانما المعلم هو المفيد للحياة الاخروية الدائمة ، اعني معلم علوم الاخرة ، او علوم الدنيا على قصد الآخرة ، لا على قصد الدنيا . فاما التعليم على

قصد الدنيا فهو هلاك واهلاك ، نعوذ بالله منه . وكما ان حق ابناء الرجل الواحد ان يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد . . .

الوظيفة الثانية : ان يقتدي بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب على افادة العلم اجرًا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكرًا ، بل يعلم لوجه الله تعالى ، وطلباً للتقرب اليه . ولا يرى لنفسه منة عليهم ، وان كانت المنة لازمة عليهم . . .

الوظيفة الثالثة : ان لا يدع من نصح المتعلم شيئاً . . .

الوظيفة الرابعة ، وهي من دقائق صناعة التعليم : ان يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق ، بطريق التعريض ما امكن ، ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ . فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار . . .

الوظيفة الخامسة : ان المتكفل ببعض العلوم ينبغي ان لا يقبح ، في نفس المتعلم ، العلوم التي وراءه ، كمعلم اللغة اذ عادته تقبيح علم الفقه . . .

الوظيفة السادسة : ان يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي اليه ما لا يبلغه عقله ، فينفره . . .

الوظيفة السابعة : ان المتعلم القاصر ينبغي ان يلقى عليه الجلي اللائق به ، ولا يذكر له ان وراء هذا تدقيقاً ، وهو يدخره عنه . فان ذلك يفتر رغبته في الجلي ، ويشوش عليه قلبه ، ويوهم اليه البخل عنه ، اذ يظن كل احد انه اهل لكل علم دقيق . فما من احد الا وهو راضٍ عن الله سبحانه في كمال عقله ، واشدهم حماقة ، واضعفهم عقلاً ، هو افرحهم بكمال عقله . . .

الوظيفة الثامنة : ان يكون المعلم عاملاً بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله . . .

(الاحياء : ١ : ص ٣٦-٤٤)

آفات النكاح وفوائده

وفيه فوائد خمسة : الولد ، وكسر الشهوة ، وتدبير المنزل ، وكثرة العشيرة ، ومجاهدة النفس بالقيام بهن .

الفائدة الاولى الولد ، وهو الاصل ، وله وُضع النكاح[١] ، والمقصود ابقاء النسل ، وان لا يخلو العالم عن جنس الانس ، وانما الشهوة خلقت باعثة مستحثة . . .

الفائدة الثانية التحصن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغض البصر . . .

الفائدة الثالثة ترويح النفس ، وايناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة ، اراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة . فان النفس ملول ، وهي عن الحق نفور ، لانه على خلاف طبعها ، فلو كلفت المداومة بالاكراه على مايخالفها جمحت وثابت ، واذا روّحت باللذات في بعض الاوقات قويت ونشطت . وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ، ويروح القلب ، وينبغي ان يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات . . .

الفائدة الرابعة تفريغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الاواني ، وتهيئة اسباب المعيشة . . .

الفائدة الخامسة مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية ، والقيام بحقوق الاهل ، والصبر على اخلاقهن ، واحتمال الاذى منهن ، والسعي

---

١) النكاح هو الزواج الشرعي .

في اصلاحهن وارشادهن الى طريق الدين ، والاجتهاد في كسب الحلال لاجلهن ، والقيام بتربيته لاولاده . فكل هذه اعمال عظيمة الفضل . . .

اما آفات النكاح فثلاث :

الاولى ، وهي اقواها ، العجز عن طلب الحلال. فان ذلك لا يتيسر لكل احد ، لا سيا في هذه الاوقات ، مع اضطراب المعايش ، فيكون النكاح سبباً في التوسع للطلب ، والاطعام من الحرام ، وفيه هلاكه وهلاك اهله . والمتعزب في أمن من ذلك ، واما المتزوج ففي الاكثر يدخل في مداخل السوء فيتبع هوى زوجته ، ويبيع آخرته بدنياه . . .

الآفة الثانية القصور عن القيام بحقهن ، والصبر على اخلاقهن ، واحتمال الاذى منهن. وهذه دون الاولى في العموم ، فان القدرة على هذا ايسر من القدرة على الاولى. وتحسين الخلق مع النساء ، والقيام بحظوظهن اهون من طلب الحلال . . .

الآفة الثالثة ، وهي دون الاولى والثانية ، ان يكون الاهل والولد شاغلاً له عن الله تعالى ، وجاذباً له الى طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة للاولاد بكثرة جمع المال ، وادخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر بهم . وكل ما شغل عن الله من اهل ومال فهو مشؤوم على صاحبه . ولست اعني بهذا ان يدعو الى محظور ، فان ذلك مما اندرج تحت الآفة الاولى والثانية ، بل ان يدعوه الى التنعم بالمباح ، بل الى الاغراق في ملاعبة النساء ، ومؤانستهن ، والامعان في التمتع بهن . . .

فهذه مجامع الآفـات والفوائد . فالحكم على شخص واحد بان الافضل له النكاح او العزوبة مطلقاً قصور عن الاحاطة بمجامع هذه الامور . بل تتخذ هذه الفوائد والآفات معتبراً ومحكاً ، ويعرض المريد عليه نفسه ، فان انتفت في حقه الآفات ، واجتمعت الفوائد ، بأن كان له مال حلال ، وخلق حسن ، وجدّ في الدين تام لا يشغله النكاح عن

الله ، وهو مع ذلك شاب محتاج الى تسكين الشهوة ، ومنفرد يحتاج الى تدبير المنزل والتحصن بالعشيرة ، فلا يُمارى في ان النكاح افضل له ، مع ما فيه من السعي في تحصيل الولد. فان انتفت الفوائد، واجتمعت الآفات ، فالعزوبة افضل له . وان تقابل الامران، وهو الغالب ، فينبغي ان يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة في الزيادة من دينه، وحظ تلك الآفات في النقصان منه ، فاذا غلب على الظن رجحان احدهما حكم به . واظهر الفوائد الولد وتسكين الشهوة ، واظهر الآفات الحاجة الى كسب الحرام ، والاشتغال عن الله .

(الاحياء : ربع العادات : الكتاب الثاني)

معرفة عيوب النفس

اعلم ان الله، عز وجل، اذا اراد بعبد خيرًا، بصره بعيوب نفسه. فمن كانت بصيرته نافذة، لم تخف عليه عيوبه ، فاذا عرف العيوب امكنه العلاج. ولكن اكثر الخلق جاهلون بعيوب انفسهم، يرى احدهم القذى في عين اخيه ، ولا يرى الجذع في عين نفسه. فمن اراد ان يعرف عيوب نفسه ، فله اربعة طرق :

الاول : ان يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس ، مطّلع على خفايا الآفات ، ويحكمه في نفسه ، ويتبع اشارته في مجاهدته . وهذا شأن المريد مع شيخه ، والتلميذ مع استاذه ، فيعرّفه استاذه وشيخه عيوب نفسه ، ويعرفه طريق علاجه. وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده.

الثاني: ان يطلب صديقاً صدوقاً ، بصيرًا متديناً ، فينصبه رقيباً على نفسه ، ليلاحظ احواله وافعاله ، فما كره من اخلاقه وافعاله ، وعيوبه الباطنة والظاهرة ، ينبهه عليه ...

الثالث: ان يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة اعدائه ، فان عين السخط تبدي المساويا...

الرابع : ان يخالط الناس ، فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق ، فليطالب نفسه به ، وينسبها اليه .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب رياضة النفس)

رياضة المريد

انَّ له شروطاً لا بد من تقديمها في بداية الارادة ، وله معتصم لا بد من التمسك به ، وله حصن لا بد من التحصن به ليأمن من الاعداء القطاع لطريقه ، وعليه وظائف لا بد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق .

اما الشروط ، التي لا بد من تقديمها في الارادة ، فهي رفع السدّ والحجاب، الذي بينه وبين الحق . . والسد بين المريد وبين الحق اربعة : المال ، والجاه ، والتقليد ، والمعصية .

وانما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه ، حتى لا يبقى له الا قدر الضرورة ، فما دام يبقى له درهم يلتفت اليه قلبه ، فهو مقيد به ، محجوب عن الله عز وجل .

وانما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه ، بالتواضع وايثار الخمول ، والهرب من اسباب الذكر،وتعاطي اعمال تنفر قلوب الخلق عنه .

وانما يرتفع حجاب التقليد ، بان يترك التعصب للمذاهب . . . فان غلب عليه التعصب لمعتقده ، ولم يبقَ في نفسه متسع لغيره ، صار ذلك قيداً له وحجاباً ، اذ ليس من شرط المريد الانتماء الى مذهب معين اصلاً .

واما المعصية فهي حجاب ، ولا يرفعها الا التوبة ، والخروج من المظالم ، وتصميم العزم على ترك العود ، وتحقيق الندم على ما مضى . . .

فاذا قدّم هذه الشروط الاربعة . . . يحتاج الى شيخ واستاذ يقتدي به . . . فاذا وجد مثل هذا المعتصم ، وجب على معتصمه ان يحميه ،

ويعصمه بحصن حصين ، يدفع عنه قواطع الطريق ، وهو اربعة امور : الخلوة والصمت والجوع والسهر . . .

واما الجوع فانه ينقص دم القلب ويبيضه ، وفي بياضه نوره ، ويذيب شحم الفؤاد ، وفي ذوبانه رقته ، ورقته مفتاح المكاشفة . . . وقال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين ، جوعوا بطونكم ، لعل قلوبكم ترى ربكم . . .

واما السهر فانه يجلو القلب ويصفيه ، وينوره ، فيضاف ذلك الى الصفاء الذي حصل من الجوع . . .

واما الصمت فانه تسهله العزلة ، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير امره ، فينبغي ان لا يتكلم الا بقدر الضرورة ، فان الكلام يشغل القلب ، وشره القلوب الى الكلام عظيم . . .

واما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل ، وضبط السمع والبصر ، فانهما دهليز القلب ، والقلب في حكم حوض ، تنصب اليه مياه كريهة كدرة قذرة من انهار الحواس ، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ، ومن الطين الحاصل منها ، ليتفجر اصل الحوض ، فيخرج منه الماء النظيف الطاهر . . . وليس يتم ذلك الا بالخلوة في بيت مظلم ، وان لم يكن له مكان مظلم ، فليلف رأسه في جيبه ، او يتدثر بكساء او ازار ، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية . . .

فهذه الاربعة جنة وحصن بها تدفع عنه القواطع ، وتمنع العوارض القاطعة للطريق ، فاذا فعل ذلك ، اشتغل بعده بسلوك الطريق . وانما سلوكه بقطع العقبات ، ولا عقبة على طريق الله تعالى الا صفات القلب ، التي سببها الالتفات الى الدنيا . . .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب رياضة النفس)

ذم الغنى ومدح الفقر

اعلم ان الناس قد اختلفوا في تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر، وقد اوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد[١]، وكشفنا عن تحقيق الحق فيه . ولكنا في هذا الكتاب ندل على ان الفقر افضل واعلى من الغنى على الجملة ، من غير التفات الى تفصيل الاحوال . ونقتصر فيه على حكاية فصل ، ذكره الحرث المحاسبي في بعض كتبه ، في الرد على بعض العلماء من الاغنياء ، حيث احتج باغنياء الصحابة ، وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف ، وشبّه نفسه بهم . . .

قال ، بعد كلام له في الرد على علماء السوء : بلغنا ان عيسى ابن مريم عليه السلام قال :

« يا علماء السوء ، تصومون وتصلون وتصدقون ، ولا تفعلون ما تؤمرون ، وتدرّسون ما لا تعلمون ، فيا سوء ما تحكمون . تتوبون بالقول والاماني ، وتعملون بالهوى ، وما يغني عنكم ان تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق اقول لكم ، لا تكونوا كالمنخل ، يخرج منه الدقيق الطيّب ، وتبقى فيه النخالة . كذلك انتم تخرجون الحكم من افواهكم ، ويبقى الغل في صدوركم . يا عبيد الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته . بحق اقول لكم ان قلوبكم تبكي من اعمالكم . جعلتم الدنيا تحت السنتكم ، والعمل تحت اقدامكم . بحق اقول لكم ، افسدتم آخرتكم ، فصلاح الدنيا احب اليكم من صلاح الآخرة ، فاي الناس اخسر منكم لو تعلمون . ويلكم حتامَ تصفون الطريق للمدلجين ، وتقيمون في محل

---

١) هو كتاب من ربع المنجيات

المتحيرين ، كأنكم تدعون اهل الدنيا ليتركوها لكم ؟ مهلا ، مهلا! ويلكم ، ماذا يغني عن البيت المظلم ان يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه موحش مظلم . كذلك لا يغني عنكم ان يكون نور العلم بافواهكم ، واجوافكم منه موحشة معطلة . يا عبيد الدنيا ، لا كعبيد اتقياء ، ولا كاحرار كرام ، توشك الدنيا ان تقلعكم عن اصولكم ، فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ؛ ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم تدفعكم من خلفكم ، حتى تسلمكم الى الملك الديان عراة فرادى ، فيوقفكم على سوآتكم ، ثم يجزيكم بسوء اعمالكم!».

ثم قال الحرث ، رحمه الله : اخواني ، فهؤلاء علماء السوء ، شياطين الانس ، وفتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة ، واذلوا الدين للدنيا .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب ذم حب المال)

الرياء

الرياء طلب المنزلة في قلوب الناس ، بايرائهم خصال الخير . . والمراءى به كثير ، وتجمعه خمسة اقسام . . : البدن ، والزي ، والقول ، والعمل ، والاتباع والاشياء الخارجة . . .

القسم الاول الرياء في الدين بالبدن . وذلك باظهار النحول ، والصفار ، ليوهم بذلك شدة الاجتهاد ، وعظم الحزن على امر الدين ، وغلبة خوف الآخرة ، وليدل بالنحول على قلة الاكل ، وبالصفار على سهر الليل . . . وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ، ليدل به على استغراق الهم بالدين ، وعدم التفرغ لتسريح الشعر . . ويقرب من هذا خفض الصوت ، واغارة العينين ، وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على انه مواظب على الصوم ،

وان وقار الشرع هو الذي خفض من صوته ، او ضعف الجوع هو الذي ضعّف من قوته . وعن هذا قال المسيح ، عليه السلام : اذا صام احدكم ، فليدهن رأسه ، ويرجّل شعره ، ويكحل عينيه ...

الثاني الرياء بالهيئة والزي . امـا الهيئة فبتشعيث الشعر ، وحلق الشارب ، واطراق الرأس في المشي ، والهدء في الحركة ، وابقاء اثر السجود على الوجوه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصوف ، وتشميرها الى قريب من الساق ، وتقصير الاكمام ، وترك تنظيـف الثوب ، وتركه مخرقاً ... والمراؤون بالزي على طبقات . فنهم من يطلب المنزلة عند اهل الصلاح باظهار الزهد ، فيلبس الثياب المخرقة ، الوسخة ، القصيرة ، الغليظة ، ليرائي بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها انه غير مكترث بالدنيا ، ولو كلف ان يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً ، مما كان السلف يلبسه ، لكان عنده بمنزلة الذبح .. وطبقة اخرى يطلبون القبول عند اهل الصلاح ، وعند اهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ، ... فلذلك يطلبون الاصواف الدقيقة ، والاكسية الرقيقة ، والمرقعات المصبوغة ، والفوط الرفيعة ، فيلبسونها . ولعل قيمة ثوب احدهم قيمة ثوب احد الاغنياء ، ولونه وهيئته لون ثياب العلماء ، فيلتمسون القبول عند الفريقين ...

الثالث الرياء بالقول . ورياء اهل الدين بالوعظ والتذكير ، والنطق بالحكمة ، وحفظ الاخبار والآثار ، لاجل الاستعمال في المحاورة ... وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ، واظهار الغضب للمنكرات ، واظهار الاسف على مقارفة الناس للمعاصي ، وتضعيف الصوت في الكلام ، وترقيق الصوت بقراءة القرآن ...

الرابع الرياء بالعمل . كمراآة المصلّي بطول القيام ، ومد الظهر ، وطول السجود والركوع واطراق الرأس ، وترك الالتفـاتات ، واظهار الهدء

والسكون ، وتسوية القدمين واليدين . . وبالاخبات في المشي عند اللقاء ، كارخاء الجفون ، وتنكيس الرأس ، والوقار في الكلام ، حتى ان المرائي قد يسرع في المشي الى حاجته ، فاذا طلع عليه احد من اهل الدين ، رجع الى الوقار ، واطراق الرأس . . .

الخامس المراآة بالاصحاب ، والزائرين ، والمخالطين . كالذي يتكلف ان يستزير عالماً من العلماء ، ليقال ان فلاناً زار فلاناً ، او عابداً من العباد ، ليقال ان اهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون اليه ، او ملكاً من الملوك او عاملاً من عمّال السلطان ، ليقال انهم يتبركون به ، لعظم رتبته في الدين[1] . . .

فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون ، وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب ذم الجاه والرياء)

علاج حب الجاه

ان من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوفاً بالتودد اليهم ، والمراآة لاجلهم . . . فحب الجاه اذاً من المهلكات ، فيجب علاجه وازالته عن القلب . . . وعلاجه مركب من علم وعمل .

اما العلم فهو ان يعلم السبب الذي لاجله احب الجاه ، وهو كمال القدرة على اشخاص الناس ، وعلى قلوبهم . وقد بينا ان ذلك ، ان صفا وسلم ، فآخره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات . بل لو

---

١) ان ما يسرده الغزالي من مظاهر الرياء ، هو ايضاً ، في بعضه ، من مظاهر الفضيلة الصحيحة . وانما الفرق في النيّة .

سجد لك كل من على بسيط الارض من المشرق الى المغرب ، فالى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ...

وابصار اكثر الخلق ضعيفة ، مقصورة على العاجلة ، لا يمتد نورها الى مشاهدة العواقب ... فمن هذا حدّه فينبغي ان يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة ، وهو ان يتفكر في الاخطار التي يستهدف لها ارباب الجاه في الدنيا ، فان كل ذي جاه محسود ومقصود بالايذاء ، وخائف على الدوام على جاهه ، ومحترز من ان تتغير منزلته في القلوب ، والقلوب اشد تغيرًا من القدر في غليانها ، وهي مترددة بين الاقبال والاعراض ، فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على امواج البحر ، فانه لا ثبات له . والاشتغال بمراعاة القلوب ، وحفظ الجاه ، ودفع كيد الحساد ، ومنع اذى الاعداء ، كل ذلك غموم عاجلة ، ومكدرة للذة الجاه ...

واما من حيث العمل فاسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة افعال يلام عليها ... ولا يجوز له ان يقدم على محظور لاجل ذلك ، بل له ان يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب ذم الجاه والرياء)

دواء الحسد

ان الحسد من الامراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى امراض القلوب الا بالعلم والعمل .

والعلم النافع لمرض الحسد هو ان تعرف تحقيقاً ان الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين ، وانه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين ، بل ينتفع به فيهما . ومهما عرفت ذلك عن بصيرة ، ولم تكن عدو نفسك ، وصديق عدوك ، فارقت الحسد لا محالة .

اما كونه ضرراً عليك في الدين فهو انك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده ، وعدله الذي اقامه في ملكه بخفيّ حكمته ، فاستنكرت ذلك ، واستبشعته ، وهذه جناية . . .

واما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو انك تتألم بحسدك في الدنيا ، او تتعذب به ، ولا تزال في كدّ وغمّ ، اذ اعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها ، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى مغموماً محروماً ، متشعب القلب ضيق الصدر، قد نزل بك ما يشتهيه الاعداء لك ، وتشتهيه لاعدائك . فقد كنت تريد المحنة لعدوك ، فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقدا . ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك . . .

واما انه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح ، لان النعمة لا تزول عنه بحسدك ، بل ما قدره الله تعالى من اقبال ونعمة فلا بدّ ان يدوم الى اجل معلوم . . . ولذلك شكا نبي من الانبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق ، فاوحى الله اليه : فرّ من قدامها حتى تنقضي ايامها . . . ومهما لم تزل النعمة بالحسد ، لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ، ولا يكون عليه اثم في الآخرة . ولعلك تقول : ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي ! وهذا غاية الجهل ، فانه بلاء تشتهيه اولًا لنفسك ، فانك ايضاً لا تخلو عن عدو يحسدك ، فلو كانت النعمة تزول بالحسد ، لم يبقَ لله تعالى عليك نعمة ، ولا على احد من الخلق ، ولا نعمة الايمان ايضاً ، لان الكفار يحسدون المؤمنين على الايمان . . . وان اشتهيت ان تزول النعمة عن الخلق بحسدك ، ولا تزول عنك بحسد غيرك ، فهذا غاية الجهل والغباوة ، فان كل واحد من حمقى الحساد ايضاً يشتهي ان يخص بهذه الخاصية ، ولست بأولى من غيرك . . .

واما ان المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح . اما منفعته في

الدين فهو انه مظلوم من جهتك ، لاسيما اذا اخرجك الحسد الى القول والفعل بالغيبة ، والقدح فيه ، وهتك ستره ، وذكر مساوئه ... واما منفعته في الدنيا فهو ان اهم اغراض الخلق مساءة الاعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ، ولا عذاب اشد مما انت فيه من الم الحسد. وغاية اماني اعدائك ان يكونوا في نعمة ، وان تكون في غم وحسرة بسببهم ، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم . ولذلك لا يشتهي عدوك موتك ، بل يشتهي ان تطول حياتك ، ولكن في عذاب الحسد ، لتنظر الى نعمة الله عليه فينقطع قلبك حسداً ، ولذلك قيل :

لا مات اعداؤك ، بل خلدوا   حتى يروا فيك الذي يكمد
لا زلت محسوداً على نعمة   فانما الكامل من يُحسد!..

واما العمل النافع فيه فهو ان يحكم الحسد ، فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي ان يكلف نفسه نقيضه . فان بعثه الحسد على القدح في محسوده كلّف لسانه المدح له والثناء عليه ، وان حمله على التكبر عليه الزم نفسه التواضع له ، والاعتذار اليه . وان بعثه على كف الانعام عليه ، الزم نفسه الزيادة في الانعام عليه . فمهما فعل ذلك عن تكلف ، وعرفه المحسود ، طاب قلبه واحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فاحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، لان التواضع والثناء والمدح واظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ، ويسترقه ، ويستعطفه ، ويحمله على مقابلة ذلك بالاحسان ... فهذه هي ادوية الحسد ، وهي نافعة جداً ، الا انها مرة على القلوب جداً . ولكن النفع في الدواء المر !

(ربع المهلكات : الحسد)

التوكل

التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ... فان ثبت في نفسك ، بكشف او باعتقاد جازم ، انه لا فاعل الا الله ، كما سبق ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم ، والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وانــه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ، ولم يلتفت الى غيره بوجه ، ولا الى نفسه وحوله وقوته ، فانه لا حول ولا قوة الا بالله...

واذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التي سميت توكلاً فاعلم ان تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

الدرجة الاولى...ان يكون حاله في حق الله تعالى ، والثقة بكفالته وعنايته ، كحاله في الثقة بالوكيل .

الثانية ، وهي اقوى ، ان يكون حاله مع الله تعالى ، كحال الطفل مع امه . فانه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع الى احد سواها ، ولا يعتمد الاها ، فاذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ، ولم يخلّها ، وان نابه امر في غيبتها ، كان اول سابق الى لسانه : يا اماه !...

الثالثة ، وهي اعلاها ، ان يكون بين يدي الله تعالى ، في حركاته وسكناته ، مثل الميت بين يدي الغاسل ، لا يفارقه الا في انه يرى نفسه ميتاً ، تحركه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل الميت . وهو الذي قوي يقينه بانه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات ، وان كلا يحدث جبراً ، فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه . ويفارق الصبي ، فان الصبي يفزع الى امه ، ويصيح ، ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها . بل هو مثل صبي علم انه ، وان لم يزعق بامه ، فالام تطلبه ، وانه ،

وان لم يتعلق بذيل امه ، فالام تحمله، وان لم يسألها اللبن ، فالام تفاتحه وتسقيه . وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ، ثقة بكرمه وعنايته ، وانه يُعطي ابتداء افضل مما يسأل .

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب التوكل)

محبة الله

ان المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات. فما بعد ادراك المحبة مقام الّا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق والانس والرضى واخواتها . ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها ، كالتوبة والصبر والزهد وغيرها .

وسائر المقامات ، ان عز وجودها ، فلم تخلُ القلوب عن الايمان بامكانها . واما محبة الله تعالى فقد عز الايمان بها ، حتى انكر بعض العلماء امكانها ، وقال لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله تعالى. واما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثال. ولما انكروا المحبة ، انكروا الانس والشوق ولذة المناجاة ، وسائر لوازم الحب وتوابعه . ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الامر . ونحن نذكر... بيان شواهد الشرع في المحبة ، ثم بيان حقيقتها واسبابها ، ثم بيان ان لا مستحق للمحبة الا الله تعالى ...

١ – شواهد الشرع

اعلم ان الامة مجمعة على ان الحب لله تعالى ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فرض. وكيف يفرض ما لا وجود له؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته، فلا بد وان يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من احب .

ويدل على اثبات الحب لله تعالى قوله ، عز وجل :«يحبهم ويحبونه» وقوله تعالى :«والذين آمنوا اشد حباً لله»، وهو دليل على اثبات الحب ، واثبات التفاوت فيه . . .

وفي الخبر المشهور ان ابرهيم ، عليه السلام ، قال لملك الموت ، اذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فاوحى الله تعالى اليه : هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال : يا ملك الموت ، الآن فاقبض!

ويروى ان عيسى ، عليه السلام ، مرّ بثلاثة نفر، قد نحلت ابدانهم، وتغيرت الوانهم ، فقال: ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ فقالوا : الخوف من النار . فقال: حق على الله ان يؤمن الخائف . ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرين، فاذا هم اشد نحولاً وتغيراً ، فقال: ما الذي بلغ بكم ما ارى؟ قالوا : الشوق الى الجنة . فقال: حق على الله ان يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين ، فاذا هم اشد نحولاً وتغيراً ، كأن على وجوههم المرائي من النور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ قالوا : نحب الله ، عز وجل . فقال : انتم المقربون ، انتم المقربون ، انتم المقربون !. . .

٢ — حقيقة المحبة واسبابها

اول ما ينبغي ان يتحقق انه لا يتصور محبة ، الا بعد معرفة وادراك ، اذ لا يحب الانسان الا ما يعرفه . . .

الاصل الثاني ان الحب ، لما كان تابعاً للادراك والمعرفة ، انقسم لا محالة ، بحسب انقسام المدركات والحواس . فلكل حاسة ادراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات . . . قال رسول الله، صلى الله عليه وسلّم :«حُبّب اليَّ من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء والصلاة، وجعل قرة عيني في الصلاة . » فسمّى الطيب محبوباً ، ومعلوم انه لا حظ للعين والسمع فيه ، بل للشم فقط . وسمّى النساء محبوبات، ولا حظ فيهن

الا للبصر واللمس ، دون الشم والذوق والسمع. وسمّى الصلاة قرة عين، وجعلها ابلغ المحبوبات ، ومعلوم انه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس ، مظنّته القلب ، لا يدركه الا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الانسان ، فان كان الحب مقصورًا على مدركات الحواس الخمس ، حتى يقال ان الله تعالى لا يدرك بالحواس ، ولا يتمثل بالخيال ، فلا يحب ، فاذًا قد بطلت خاصية الانسان،وما تميز به من الحس السادس،الذي يعبر عنه اما بالعقل،او بالنور او بالقلب... فلا ينكر اذًا حب الله تعالى الا من قعد به القصور في درجة البهائم...

ترجع اسباب الحب الى خمسة اسباب : وهو حب الانسان وجود نفسه ، وكماله وبقاءه؛وحبه من احسن اليه فيما يرجع الى دوام وجوده، ويعين على بقائه ، ودفع المهلكات عنه ؛ وحبه من كان محسنًا في نفسه الى الناس،وان لم يكن محسنًا اليه؛ وحبه لكل ما هو جميل في ذاته، سواء كان من الصور الظاهرة او الباطنة ؛ وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفيّة في الباطن . فلو اجتمعت هذه الاسباب في شخص واحد، تضاعف الحب لا محالة... فان كانت هذه الصفات في اقصى درجات الكمال ، كان الحب لا محال في اعلى الدرجات . فلنبين الآن ان هذه الاسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها الا في حق الله تعالى ، فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله سبحانه وتعالى.

٣ – لا مستحق للمحبة الا الله

لا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر الا الله تعالى ، ولا مستحق للمحبة سواه. وايضاحه بان نرجع الى الاسباب الخمسة ، التي ذكرناها ، ونبين انها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها،ولا يوجد في غيره الا آحادها، وانها حقيقة في حق الله ، ووجودها في حق غيره وهم وتخيّل...

فاما السبب الاول ، وهو حب الانسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده ، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله ، فهذه جبلة كل حي ، ولا يتصور ان ينفك عنها . وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى ، فان من عرف نفسه ، وعرف ربه ، عرف قطعاً انه لا وجود له من ذاته ، وانما وجود ذاته ، ودوام وجوده ، وكمال وجوده ، من الله ، والى الله ، وبالله ...

والسبب الثاني ، وهو حبه من احسن اليه ، ... يقتضي ان لا يحب الا الله تعالى . فانه لو عرف حق المعرفة ، لعلم ان المحسن اليه هو الله تعالى فقط ...

والسبب الثالث ، وهو حبك المحسن في نفسه ، ... يقتضي حب الله تعالى ، بل يقتضي ان لا يحب غيره اصلاً ، الا من حيث يتعلق منه بسبب . فان الله هو المحسن الى الكافة ، والمتفضل على جميع اصناف الخلائق ...

واما السبب الرابع ، وهو حب كل جميل لذات الجمال ، لا لحظ يُنال منه وراء ادراك الجمال ، فقد بينا ان ذلك مجبول في الطباع . وان ... جمال صفات الصديقين ، الذين تحبهم القلوب طبعاً ، ترجع الى ثلاثة امور : احدها علمهم بالله وملائكته ... والثاني قدرتهم على اصلاح انفسهم واصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة . والثالث تنزههم عن الرذائل والخبائث ... فانسب هذه الصفات الى صفات الله تعالى :

اما العلم فاين علم الاولين والآخرين من علم الله ؟ ...

واما صفة القدرة فهي ايضاً كمال ... ولا حول ولا قوة الا بالله ...

واما صفة التنزه عن العيوب والنقائص ... فلا يتصور كمال التقدس والتنزه الا للواحد الحق ...

واما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة ، لان شبه الشيء

منجذب اليه ، والشكل الى الشكل اميل . . . ولذلك . . . قال (النبي) : « الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» . . . وهذا السبب ايضاً يقتضي حب الله تعالى ، لمناسبة باطنة . . .

فهذه هي المعلومة من اسباب الحب ، وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى ، تحقيقاً لا مجازاً ، وفي اعلى الدرجات لا في ادناها .

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب المحبة)

الاخلاص

اعلم ان كل شيء يتصور ان يشوبه غيره . فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه ، سمي خالصاً . ويسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصاً . . . ومن كان غرضه محض التقرب الى الله تعالى فهو مخلص . . .

وانما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، اما من الرياء ، او من غيره من حظوظ النفس . ومثال ذلك ان . . . يحج ، ليصح مزاجه بحركة السفر ، او يتخلص من شر يعرض له في بلده ، او ليهرب عن عدو في منزله ، او يتبرم باهله وولده ، او بشغل هو فيه ، فاراد ان يستريح منه اياماً . . او يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال . . . او توضأ ليتنظف او يتبرد . . او يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ، ويذكر به ، وينظر اليه بعين الصلاح والوقار . . .

فمهما كان باعثه هو التقرب الى الله تعالى ، ولكن انضاف اليه خطرة من هذه الخطرات ، حتى صار العمل اخف عليه بسبب هذه الامور ، فقد خرج عمله عن حد الاخلاص ، وخرج عن ان يكون خالصاً لوجه الله تعالى ، وتطرق اليه الشرك . وقد قال تعالى : انا اغنى الشركاء عن الشركة .

وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا ، تستريح اليه النفس ، ويميل

اليه القلب ، قلّ ام كثر ، اذا تطرق الى العمل ، تكدر به صفوه ، وزال به اخلاصه . والانسان مرتبط في حظوظه ، منغمس في شهواته ، قلما ينفك فعل من افعاله ، وعبادة من عباداته ، عن حظوظ واغراض عاجلة من هذه الاجناس . فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة ، خالصة لوجه الله ، نجا ! وذلك لعزّة الاخلاص ، وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب. بل الخالص هو الذي لا باعث عليه الا طلب القرب من الله تعالى ... وهذا لا يتصور الا من محب لله ، مستهتر بالله ، مستغرق الهم بالآخرة ، بحيث لم يبقَ لحب الدنيا في قلبه قرار . حتى لا يحب الاكل والشرب ايضاً ، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة ، من حيث انه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهي الطعام لانه طعام ، بل لانه يقوّيه على عبادة الله تعالى ... فمثل هذا الشخص لو أكل ، او شرب ، ... كان خالص العمل ، صحيح النية ، في جميع حركاته وسكناته . فلو نام مثلاً حتى يريح نفسه ، ليتقوى على العبادة بعده ، كان نومه عبادة ، وكان له درجة المخلصين فيه ...

وكم من اعمال يتعب الانسان فيها ، ويظن انها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها مغروراً ، لانه لا يرى وجه الآفة فيها . كما حكي عن بعضهم انه قال : « قضيت صلاة ثلاثين سنة ، صليتها في المسجد ، في الصف الاول . لاني تأخرت يوماً لعذر ، فصليت في الصف الثاني ، فاعترتني خجلة من الناس ، حيث رأوني في الصف الثاني . فعرفت ان نظر الناس الي في الصف الاول كان مسرتي ، وسبب استراحة قلبي ، من حيث لا اشعر ! »

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب الاخلاص)

السماع

بعد بحث طويل في اباحة الغناء وتحريمه ، يصل الغزالي الى هذه النتيجة :

ان السماع قد يكون حراماً محضاً ، وقد يكون مباحاً ، وقد يكون مكروهاً ، وقد يكون مستحباً . اما الحرام فهو لاكثر الناس من الشبان ، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا ، فلا يحرك السماع منهم الا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة . واما المكروه فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ، ولكنه يتخذه عادة له في اكثر الاوقات ، على سبيل اللهو . واما المباح فهو لمن لاحظ له منه الا التلذذ بالصوت الحسن . واما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ، ولم يحرك السماع منه الا الصفات المحمودة .

اما اهم آداب السامع ، في نظر الغزالي ، فهي :

١ – ان يكون مصغياً الى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات الى الجوانب ، متحرزاً عن النظر الى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من احوال الوجد ، مشتغلاً بنفسه ومراعاة قلبه ، ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سره ، متحفظاً عن حركة تشوش على اصحابه قلوبهم . بل يكون ساكن الظاهر ، هادئ الاطراف ، متحفظاً عن التنحنح والتثاؤب ، ويجلس مطرقاً رأسه ، كجلوسه في فكر مستغرق لقلبه ، متماسكاً عن التصفيق والرقص وسائر الحركات ، على وجه التصنع والتكلف والمراآة ، ساكتاً عن النطق ، في اثناء القول ، بكل ما عنه بدّ . فان غلبه الوجد ، وحركه بغير اختيار ، فهو فيه معذور وغير ملوم . ومهما رجع اليه الاختيار ، فليعد الى هدوئه وسكونه . . .

٢ – ان لا يقوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على ضبط

نفسه . ولكن ان رقص أو تباكى فهو مباح ، اذا لم يقصد به المراآة، لان التباكي استجلاب للحزن، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط، فكل سرور مباح... واما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه الا عند خروج الامر عن الاختيار . ولا يبعد ان يغلب الوجد ، بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدري ، لغلبة سكر الوجد عليه، او يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه . وتكون صورته صورة المكره ، اذ يكون له في الحركة او التمزيق متنفس ، فيضطر اليه اضطرار المريض الى الانين...

٣ – موافقة القوم في القيام ، اذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف ، او قام باختيار من غير اظهار وجد ، وقامت له الجماعة . فلا بد من الموافقة ، فذلك من آداب الصحبة . وكذلك ان جرت عادة طائفة بتنحية العمامة ، على موافقة صاحب الوجد اذا سقطت عمامته ، او خلع الثياب اذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق . فالموافقة في هذه الامور من حسن الصحبة والمعاشرة، اذ المخالفة موحشة، ولكل قوم رسم

(الأحياء : ربع العادات : الكتاب الثامن)

الوجد

انه عبارة عن حالة يثمرها السماع . وهو وارد حق جديد ، عقيب السماع ، يجده المستمع من نفسه . وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين ، فانها اما ان ترجع الى مكاشفات ومشاهدات ، هي من قبيل العلوم والتنبيهات ، واما ان ترجع الى تغيرات واحوال ، ليست من العلوم ، بل هي كالشوق والخوف ، والحزن والقلق والسرور، والاسف والندم، والبسط والقبض . وهذه الاحوال يهيجها السماع ويقويها ، فان ضعف بحيث لم يؤثر في تحريك الظاهر او تسكينه، او تغيير حاله حتى يتحرك

على غير عادته ، او يطرق ، او يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته ، لم يسمَّ وجداً . وان ظهر على الظاهر سمي وجداً ، اما ضعيفاً واما قوياً ، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر .

(الاحياء : ربع العادات : الكتاب الثامن)

الالهام والتعلم

اعلم ان العلوم ، التي ليست ضرورية ، وانما تحصل في القلب في بعض الاحوال ، تختلف الحال في حصولها . فتارة تهجم على القلب ، كأنه القي من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذي يحصل ، لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل ، يسمّى الهاماً . والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً . . .

فاذا عرفت هذا ، فاعلم ان ميل اهل التصوف الى العلوم الالهامية ، دون التعليمية . فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم ، وتحصيل ما صنفه المصنفون ، والبحث عن الاقاويل والادلة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولي لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بانوار العلم . واذا تولى الله امر القلب ، فاضت عليه الرحمة ، واشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الامور الالهية . . .

وزعموا ان الطريق في ذلك اولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الاهل والمال والولد والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه الى حالة يستوي فيها وجود

كل شيء وعدمه . ثم يخلو بنفسه في زاوية، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب، مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل في تفسير ، ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد ان لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى. فلا يزال ، بعد جلوسه في الخلوة، قائلاً بلسانه : الله ، الله ، على الدوام، مع حضور القلب ، حتى ينتهي الى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه . ثم يصبر عليه الى ان يمحى اثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر . ثم يواظب عليه الى ان يمحى عن القلب صورة اللفظ ، وحروفه ، وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجردًا في قلبه ، حاضرًا فيه ، كانه لازم له لا يفارقه...

وعند ذلك ، اذا صدقت ارادته، وصفت همته، وحسنت مواظبته، فلم تجاذبه شهواتـه ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامع الحق في قلبه..

انه لو فرضنا حوضاً محفورًا في الارض ، احتمل ان يساق اليه الماء من فوقه بانهارٍ تفتح فيه . ويحتمل ان يحفر اسفل الحوض ، ويرفع منه التراب ، الى ان يقرب من مستقر الماء الصافي ، فينفجر الماء من اسفل الحوض . ويكون ذلك الماء اصفى وادوم، وقد يكون اغزر واكثر. فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثل الانهار .وقد يمكن ان تساق العلوم الى القلب بواسطة انهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات ، حتى يمتلئ علماً . ويمكن ان تسدّ هذه الانهار ، بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويعمد الى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنهُ ، حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله.

فان قلت : كيف يتفجر العلم من ذات القلب، وهو خالٍ عنه؟ فاعلم

ان هذا من عجائب اسرار القلب، ولا يسمح بذكره في علم المعاملة[1] بل القدر الذي يمكن ذكره ان حقائق الاشياء مسطورة في اللوح المحفوظ، بل في قلوب الملائكة المقربين. فكما ان المهندس يصور ابنية الدار في بياض، ثم يخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة، فكذلك فاطر السماوات والارض كتب نسخة العالم من اوله الى اخره في اللوح المحفوظ، ثم اخرجه الى الوجود على وفق تلك النسخة ... فكان للعالم اربع درجات في الوجود : وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني، ويتبعه وجوده الحقيقي، ويتبع وجودَه الحقيقي وجوده الخيالي اعني وجود صورته في الخيال، ويتبع وجوده الخيالي وجودُه العقلي اعني وجود صورته في القلب...

فنقول: القلب، قد يتصور ان يحصل فيه حقيقة العالم وصورته، تارة من الحواس، وتارة من اللوح المحفوظ، كما ان العين يتصور ان يحصل فيها صورة الشمس، تارة من النظر اليها، وتارة من النظر الى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها. فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ، رأى الاشياء فيه، وتفجر اليه العلم منه، فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الارض. ومهما اقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات، كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ، كما ان الماء، اذا اجتمع في الانهار، منع ذلك من التفجر فى الارض، وكما ان من نظر الى الماء الذي يحكي صورة الشمس، لا يكون ناظرًا الى نفس الشمس.

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب عجائب القلب)

---

١) قال الغزالي في مقدمة كتاب الاحياء : «ان العلم، الذي يتوجه به الى الاخرة، ينقسم الى علم المعاملة وعلم المكاشفة. واعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط. واعني بعلم المعاملة ما يطلب منه، مع الكشف، العمل به. والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط، دون علم المكاشفة، التي لا رخصة في ايداعها الكتب! ... »

الغزالي والانجيل

في كتب الغزالي كثير من آيات الانجيل ، وفيها اقوال مشابهة لاقوال انجيلية، وفيها اقوال منسوبة الى المسيح غير موجودة في الانجيل. وانا نثبت لك بعض هذه الاقوال ، ونثبت لك النص الاصيل مقابلها :

١ – آيات متماثلة

قال عيسى المسيح ، صلّى الله عليه وسلّم : اذا كان صوم احدكم ، فليدهن رأسه ولحيته ،ويمسح شفتيه، لئلا يرى الناس انه صائم ،

واذا اعطى بيمينه فليخف عن شماله ،

واذا صلّى فليرخ ستر بابه ،فان الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق.

(الاحياء : ٣: ص٢٠٢)

اما انت ، متى صمت ، فادهن رأسك،واغسل وجهك :لا تظهر للناس صيامك ، بل لابيك الذي في الخفاء..

واما انت ، متى تصدقت ، فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك .

متى صلّيت ادخل مخدعك ، واغلق بابك ، وصلِّ الى ابيك الذي في الخفاء ، وابوك الذي يرى الخفايا يكافيك .

(متى ٦: ١٧، ١٨، ٣، ٦)

قال عيسى ، عليه السلام : مثل علماء السوء كمثل شجرة وقعت على فم النهر ، لا هي تشرب الماء ، ولا هي تترك الماء يخلص الى الزرع.

ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ، ظاهرها جص وباطنها نتن، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام موتى .

(الاحياء ١: ص٤٥)

ويلكم ،ايها الكتبة والفريسيون المراؤون ، لانكم تغلقون ملكوت السماوات في وجه الناس ،فلا تدخلون ولا تدعون الراغبين يدخلون .

ويلكم ،ايها الكتبة والفريسيون المراؤون ، فانكم كالقبور المجصّصة ، ظاهرها رائق ، وباطنها كدس رفات واقذار .

(متى ٢٣: ١٣، ٢٧)

قال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين في الدنيا هم اصحاب المنابر يوم القيامة ،

طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا ، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة ،

طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا ، هم الذين ينظرون الى الله تعالى يوم القيامة

(الاحياء : ٣ : ٢٣٧)

ورأيت في الانجيل : قال عيسى ابن مريم ، عليه السلام : لقد قيل لكم ، من قبل ، ان السن بالسن ، والانف بالانف . وانا اقول لكم : لا تقاوموا الشر بالشر ، بل من ضرب خدك الايمن فحوّل اليه الخد الايسر ، ومَن اخذ رداءك فاعطه ازارك ، ومن سخرك لتسير ميلاً ، فسر معه ميلين .

(الاحياء : ٤ : ٥٣)

قال عيسى ، عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا رباً ، فتتخذكم عبيداً . اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه ، فان صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة ، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة .

(الاحياء : ٣ : ١٢٩)

طوبى للمساكين بالروح ، فان لهم ملكوت السماوات ،

طوبى للودعاء ، فانهم يرثون الارض ،

طوبى للانقياء القلوب فانهم يعاينون الله .

(متى : ٥ : ٣، ٤، ٨)

سمعتم انه قيل : عين بعين ، وسن بسن . وانا اقول لكم : لا تقاوموا الشرير ! من لطمك على خدك الايمن ، ادر له الآخر ! ومن ادّعى قميصك ، اعطه مطرفك ! ومن سخرك ميلاً ، سر معه ميلين !

(متى : ٥ : ٣٨-٤١)

لا تكنزوا لكم كنوزاً على الارض ، حيث ينخر السوس والدود ، وحيث ينقب السارقون فيسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء ، حيث لا ينخر سوس ودود ، وحيث لا ينقب سارقون فيسرقون ، لان قلبك حيث كنزك .

(متى : ٦ : ١٩-٢١)

قال عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في اناء واحد .

(الاحياء : ٣ : ١٤٠)

لا يقدر احد ان يخدم ربّين : انه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر ، واما ان يلازم الواحد ويهمل الآخر . لا تقدرون ان تخدموا الله والمال .

(متى : ٦ : ٢٤)

قال عيسى :

انظروا الى الطير لا تزرع ، ولا تحصد ، ولا تدخر ، والله تعالى يرزقها يوماً بيوم . فان قلتم : نحن اكبر بطوناً ، فانظروا الى الانعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق .

(الاحياء : ٤ : ١٩٠)

انظروا الى طيور السماء : انها لا تزرع ، ولا تحصد ، ولا تدخر ، وابوكم السماوي يقوتها . الستم افضل منها بكثير؟ . . . تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو : انها لا تتعب ، ولا تغزل . ومع ذاك سليمان نفسه ، في كل مجده ، ما اكتسى كواحدة منها .

(متى : ٦ : ٢٦،٢٨،٢٩)

٢ – اقوال منسوبة للمسيح ، وليست له :

– كم من جسد صحيح ، ووجه صبيح ، ولسان فصيح ، غدا بين اطباق النار يصيح . (الاحياء: ٤: ٣٨٢)

– من الذي يبني على موج البحر دارًا ؟ تلكم الدنيا ، فلا تتخذوها قرارًا . (الاحياء: ٣: ١٤١)

– يا معشر الحواريين ، جوّعوا بطونكم ، لعل قلوبكم ترى ربكم . (الاحياء: ٣: ١٠٦)

– لا تنظروا الى اموال اهل الدنيا ، فان بريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم . (الاحياء: ٣: ١٤٤)

– مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ، ازداد عطشاً ، حتى يقتله . (الاحياء: ٣: ١٦٤)

٥

– صحب رجل عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، فقال : اكون معك واصحبك . فانطلقا ، فانتهيا الى شط نهر ، فجلسا يتغديان ، ومعهما ثلاثة ارغفة ، فاكلا رغيفين ، وبقي رغيف ثالث . فقام عيسى ، عليه السلام ، الى النهر فشرب ، ثم رجع ، فلم يجد الرغيف ، فقال للرجل : من اخذ الرغيف؟ فقال : لا ادري . (قال) فانطلق ومعه صاحبه ، فرأى ظبية ، ومعها خشفان لها . . فدعا احدهما ، فاتاه ، فذبحه ، فاشتوى منه ، فاكل هو وذاك الرجل . ثم قال للخشف : قم باذن الله ! فقام . فقال للرجل : اسألك بالذي اراك هذه الآية : من اخذ الرغيف ؟ فقال : لا ادري . فانتهيا الى مغارة ، فجلسا ، فاخذ عيسى ، عليه السلام ، يجمع تراباً وكثيباً ، ثم قال : كن ذهباً باذن الله تعالى ! فصار ذهباً . فقسمه ثلاثة اثلاث ثم قال : ثلث لي ، وثلث لك ، وثلث لمن اخذ الرغيف . فقال : انا الذي اخذت الرغيف . فقال : كله لك . وفارقه عيسى ، عليه السلام .

(الاحياء: ٣: ١٨٨)

نستغفر الله

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلّت به القدم ، او طغى به القلم ، في كتابنا هذا[1] ، وفي سائر كتبنا .

ونستغفره من اقوالنا ، التي لا توافقها اعمالنا .

ونستغفره مما ادّعيناه ، واظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى ، مع التقصير فيه .

ونستغفره من كل علم وعمل ، قصدنا به وجهه الكريم ، ثم خالطه غيره .

ونستغفره من كل وعد وعدناه به من انفسنا ، ثم قصّرنا في الوفاء به .

ونستغفره من كل نعمة انعم بها علينا ، فاستعملناها في معصيته .

ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص ، وتقصير مقصّر ، كنا متصفين به .

ونستغفره من كل خطرة دعتنا الى تصنع وتكلّف ، تزيّنا للناس ، في كتاب سطّرناه ، او كلام نظمناه ، او علم افدناه او استفدناه .

(الاحياء : في صفحات الختام)

---

١) كتاب الاحياء

فلاسفة العرب

سلسلة دراسات ومختارات

ظهر منها :

١ — ابن الفارض (طبعة ثانية)

٢ — ابو العلاء المعري (طبعة ثانية)

٣ — ابن خلدون (طبعة ثانية)

٤ — الغزالي : في جزئين (طبعة ثانية)

٥ — ابن طفيل

٦ — ابن رشد : في جزئين

٧ — اخوان الصفاء

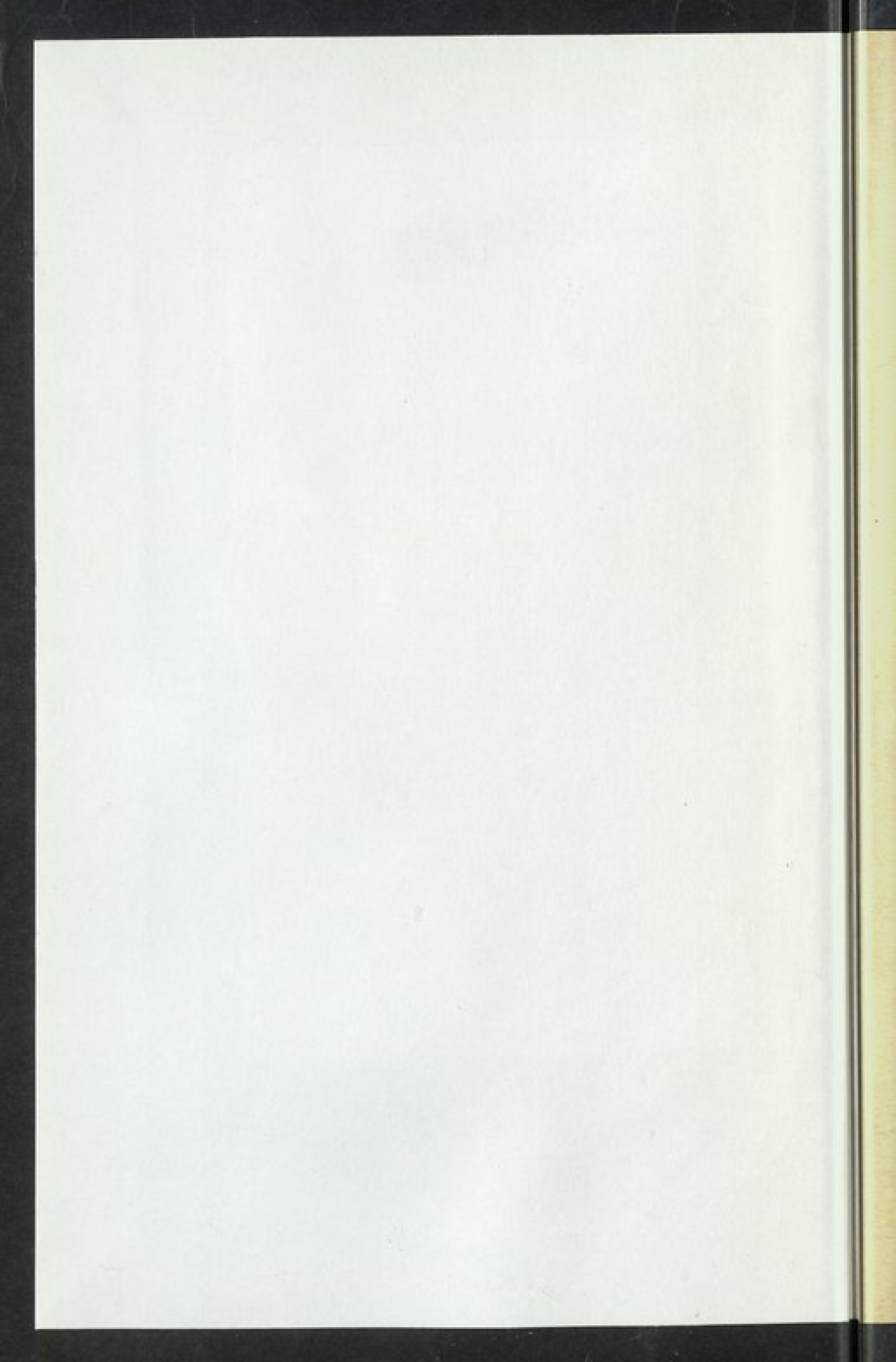
للمؤلف ايضا :

قربان الاغاني : معرّب عن طاغور

تم طبع هذا الكتاب

في السادس عشر من شهر شباط

سنة ١٩٥٣



DATE DUE



المستودع الوحيد المكتبة الشرقية، ساحة النجمة - بيروت
١٠٠ غ ل.